# استقالة ملك الموت

صفاء النجار

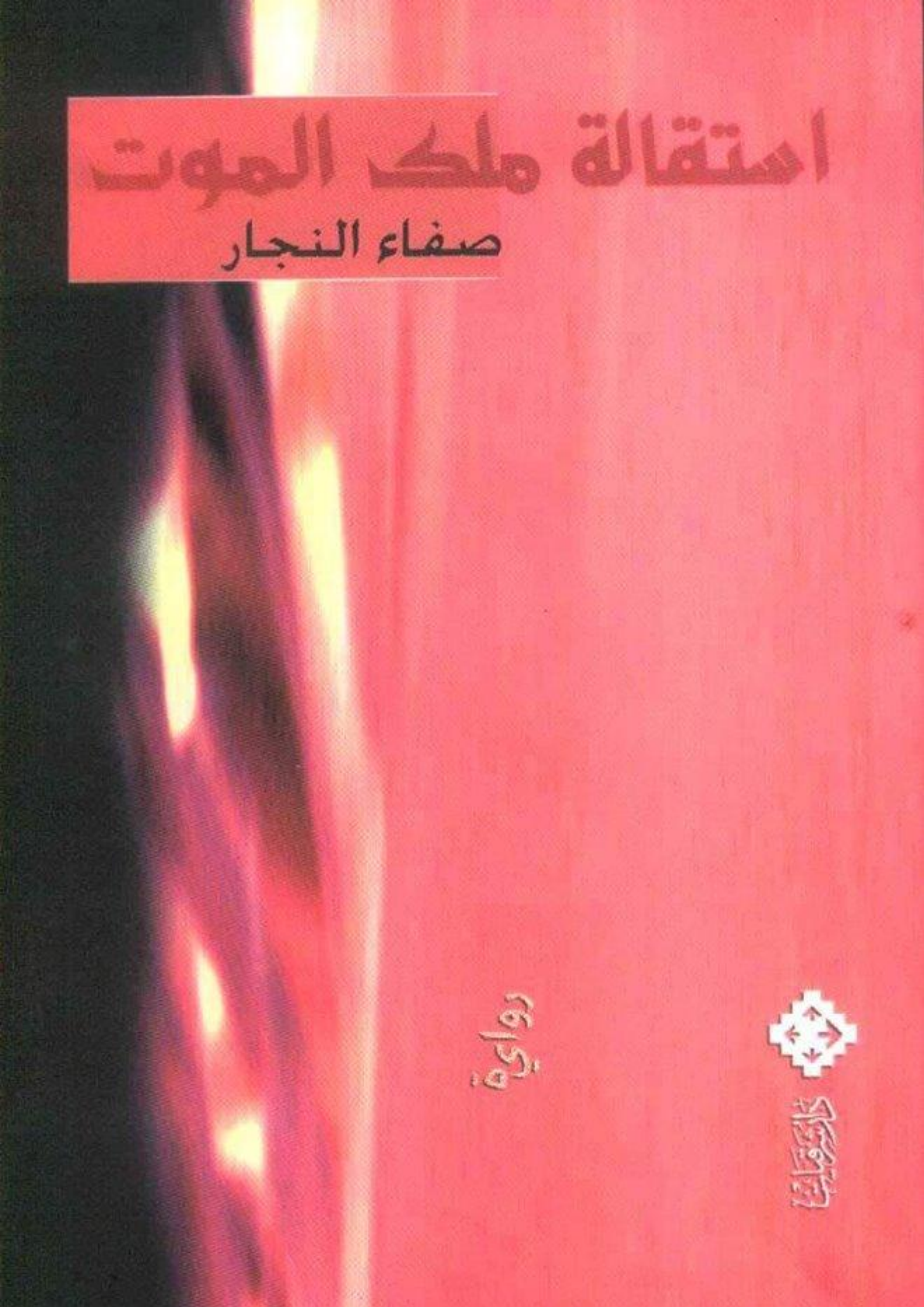

رواية

دار شرقيات

# استقالة ملك الموت

رواية

دار شرقيات للنشر والتوزيع

استقالة ملك الموت
رواية
**صفاء النجار**

الطبعة الأولى 2005
© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات 2005

**دار شرقيات للنشر والتوزيع**
5 ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي 11111
باب اللوق، القاهرة
ت 3902913 فاكس: 3931548
sharq_ca@yahoo.com

---

غلاف: هبة حلمي

رقم الإيداع 13972 / 2005
الترقيم الدولي: ISBN 977-283-196-1

صفاء النجار

# استقالة ملك الموت

رواية

دار شرقيات للنشر والتوزيع

إلى محمد الباز

# كل أحوالك حالي

# الفصل الأول

مازلت أترقب وصولها، وأستمهل الموت الذي يرفرف بجناحيه خارج نافذتي.. أرهف سمعي لخطواتها، أتشمم رائحتها، وعيناي محدقتان نحو الباب، ومع كل طرفة أختلس النظر إليه.

لم أره منذ زمن، فكأنه قادم من سفر بعيد ، على معطفه الأسود بعض قشات عالقة ، ورائحة مطر مبكر تشبع الهواء ، ويبدو أن جدوله اليوم لم يكن مثقلاً بالأعمال بما يسمح له بالتريث.. لكن من يستضيف الموت أو يقدم له كوب شاي؟!

لا أجد ما أعبر به عن امتناني له سوى أن تزيح ابنتي الستائر أكثر ، وأن تفتح النافذة كي أخبره أن انتظاره لن يطول فهي الآن قادمة عبر الحديقة، وواثقة أنا أنها حين تظل بوجهها، وأتنفس هواءها سيبتعد عن إطار النافذة ويتركنا دون رقيب.

آهأيها الموت كم أنت رقيق.

ليست المرة الأولى التي تنتظرني فيها .. في الأيام البعيدة، كنت تعبر بي الشارع، تمسك بيدي، لا أشعر بملمس جلدك، لكن إحساسا بالأمان يسري في عروقي.

عادة ما كنت أنجو من خطر قادم يراه ولا أراه.

يدفعني بيدين قويتين ، أقع بجوار حائط وقبل أن أبكي أراه قد طار ومعه طفل آخر، تتجمع النسوة، تتقدم واحدة من الطفل الملقى على الأرض، تتفحصه، في رأسه جرح من حافر الثور الهائج، تتحسس وجهه الأزرق، تناديه، تهزه، لكنه مضى بعيدا ، يرتفع الصراخ، تشق أمه جلبابها ويظهر قميصها ولحمها الأبيض.

كان الرجال منشغلين بتقليع البطاطس، وحده الرجل الذي فرَّت بقرته وأبناؤه يقفون بعيدا على حافة المشهد.

ينتبهون لي، تهزني جارة : ماذا حدث ؟! أبتلع صوتي وأشير بيدي، بينما ذهولي يخنقني، أنفض ثوبي وأسوي ضفيرتي وأنظر إلى الولد الذي كان يشاكسنا ونحن نستحم في النيل ، يأخذ ملابسنا ويصعد بها إلى شجرة الصفصاف، أو يخلع ملابسه متباهيا بعورته، فتخرج البنات مسرعات ولا نتمتع بالسباحة.

يجتمع أهل البلدة وينادون على أبي فيأتي رجل يرتدي ملابس نظيفة، رائحته حلوة وشاله الأبيض لا يفارق كتفه أيا كان لون الجلباب الذي يرتدي، وجهه مستدير وعيناه زرقاوان كلون البحر الذي رأيته فيما بعد وأصبحت لي عشة على شاطئه. يشتري أبي الكفن مع عم الميت وبعد

المغرب تقود أمي بكاء النساء. أمي تعرف مواطن الدمع جيدا ولا تخطئ مرة في دربها، تذهب وتغيب على جناح عدودات طويلة:

"يا أرض سَمِي له ساعة ما وقع ..
كَبش الحَصَي بيمينه.
يا أرض سمي عليه ساعة ما وقع..
كَبش الحصي بإيديه".

ثم تعود ومعها مخزون بئر من الدموع المالحة يحفر مجراه على خدود النساء، فيزداد العويل ويرتفع حماسها:

"لما انتِ عارفهيامه إنك تِعُوزيني..
كنتِ اقفلي الباب وحُوشيني..
لما انتِ عارفهيامه آل المنعاز...
كنتِ وقَّفيلي على كل باب حراس.."

وبعد العشاء تضع كل واحدة من المعزيات ما تجود به في منديل ها، وقبل أن تغادر تقذفه إلى أمي، فتأخذ النقود دون أن تنظر فيها ، وترد المنديل إلى صاحبته.

نفس البكائيات كتب عليك أن ترددها بعد ثلاثين عاماً.. في تلك اللحظة كنت في مركز الضوء، وصورة "منير" لا تفارق عينيك، غابت البنت

المنزوية التي تنتظر أن تنهي أمها مهمتها، وأصبحت السيدة التي صادقت الموت طويلا حتى تعودت عليه..

جاءني ذات ضحى، الشمس ملتهبة وحارقة، ملابسه متسخة كأنما سقط في بركة أسنة، جلس إلى جواري وحكى لي عن يومه:

– وقع الولد محمد في البركة ، مددت له يدي ، لكنه جذبني إليه، ظللت أصارعه وهو يعافر، إلى أن أخرجته أمه من الماء.

ساعتها هل تبينت حقيقته؟ هل خفت منه؟ لا.

وجهه الباهت صار قرمزيا وسالت دموعه دافئة وهو يردد:

– سأتوقف عن العمل ، أينما ذهبت يغلقون الباب في وجهي، ويستعيذون مني، مللت الحياة، سأرحل وأترك هذه البلدة الخربة.

ربَّت على كتفه وقلت له:

– ما تزعلش.

أحضرت له كوب ماء بسكر ووضعته إلى جانبه.

– إعمل اللي انت عايزه، وأنا هلعب معاك.

اصطحبُ معي أخي "يحيى".. نستحم في النهر نصطاد الفراشات، نجري في الحقول ..أستريح تحت ظل شجرة الجميز، أتحسس جذعها الضخم أحيطها بيدي فلا تكتمل الحلقة حولها، أتطلع إلى فروعها التي تشاكس ضوء الشمس. يسألني:

– هل تودين الصعود؟

أبتسم.

– ماأقدرش.

يمسك بيدي، يتسلقها بمهارة، أصعد خلفه، تمتد فروعها، تتكاثف، تتشابك، وكلما أوغلنا في الصعود تتحور أوراقها، وتتفتح براعمها ثمارا مختلفة: توتا، تينا، رمانا، برتقالا، تفاحا أحمر. يتدلى عنقود عنب كبير، حباته بلورية شفافة، تخرج من كل حبة حورية، يرفرفن حولي، تمسك واحدة بيدي، تكتمل الدائرة، نرقص في ضوء الشمس فيتحول شعرهن الأبيض للون الذهبي، وأتحول إلى فراشة، أرفرف عاليا أحاول الوصول للشمس، تجذبني أكثرهن حكمة، و تقص أجملهن خصلة من شعرها، تعطيها لي، بمجرد لمسي لها تتحول في يدي إلى غزل البنات، أنشغل به، أقربه من فمي فيذوب حلاوة على طرف لساني. ينقضي الوقت وتقترب الشمس من المغيب. تعود الحوريات إلى عنقودهن، أسرع بالهبوط. في طريقي أقطف تفاحةً حمراء أخفيها في جيبي، عندما ننزل تختفي التفاحة ويمتلئ كفي

بحبات الجميز. أعود ليحيى الذي يجلس تحت الشجرة، يلعب بالطين يصنع منه عروسة تشبهني، أطلب منه أن يصنع دمية لصديقي، يصدمني بقوله:

– ولد صغير!! قصدك مين؟!

لماذا يتجاهله، ويبتعد عنه، كأنه لا يراه.

... يوم، اثنان، أسبوع، شهر، ثلاثة، سنة.. لم يرتفع صوت ، لم يتحرك أبي من مكانه، يهش الذباب عن وجهه، يتشاجر مع أمي: "قل الخزين من القمح وكيزان الذرة وال قوالح". هل الموت هو السبب ؟ أفكر.. عليه أن يكف عن اللعب، ذهبت إليه وقبل أن أتكلم، بادرني:

– لقد مللت هذا اللعب.

وعادت رائحة الطبيخ للبيت.

وبقيت أنا أترقب وصول حفيدتي العائدة من سفر طويل، وقبل أن أكون أنا ما أنا كنت أنتظرها. كم مرَّ من الوقت؟ وأنا أردد ستأتي الساعة التي أتخلص فيها من حساباتي، ومساوماتي، وتجميعي للدقائق والساعات ، كي تصنع يوما مناسبا، والتقاطي للحظات الصفاء ووضعها في واجهة أيامي ، بضاعة جيدة تخفي ما بداخل القفص من أيام مم جوجة . أجلس تحت شجرة، أسند ظهري لجذعها، أتأمل السحب الصيفية البيضاء التي تتسابق

وتتداخل أشكالها.. جبالها، غزلانها، مراعيها وأرانبها الفارة من صياديها، تشد الشمس الغطاء على وجهها، طرحة من الدانتيلا الممتدة، طرفها العلوي فم مفتوح أهتم لعجوز مثلي يستند إلى عكازه ولحيته الشعثة تحمل في طرفها غزالا هاربا، يعترض طريقه جبل، ينطحه بقرونه والجبل يقهقه، وصدى ضحكته تهزني وتخرج من مكامني كل غيلاني وأشباحي وكلابي المسعورة، وتبخ شرورها في وجهي، وتعبث بي قدر ما تستطيع، يدفعني الرعب للجري بأكبر من طاقتي، فأعود أجري وما لي سوى حضن "عائشة"، وحين يستقر وجهي اللاهث بين ثدييها الطيبين، تنتبه الشمس وتتعاطف مع غزالي، فتخترق أشعتها قلب الجبل الصلد وتبدد غيماته، لكن أشعة الشمس التي لا تعرف التمييز، تبدد جسم الغزال أيضا، وتفرق أجزاءه، ترقد رأسه أمام عكاز العجوز الذي يبقي نائيا ووحيدا كما النجوم.

هذا العجوز تُراه أي رفيق من رفاق اللعب عند الساقية؟ ففي ليالي رمضان يتاح للبنت الصغيرة أن تسهر خارج البيت، ويَعِدُ رفاقها "عائشة" أنهم سيعودون بها بعد انتهاء اللعب

_ ما تخافيش يا خاله. مش هنسيب حَسنه ترجع لوحدها.

وبعد إلحاح يقترب من البكاء توافق الأم. في تلك الأيام لم يكن رمضان يأتي إلا صيفا والجرن مليء بالقمح، والبراح لا يحده سوى الغيلان والخوف من الجنيات التي تخرج من النهر لتغوي الرجال، فينسون

زوجاتهم وأبناءهم الصغار، ويهيمون على وجوههم بملابسهم المقطعة، ويصبحون مثل "جاد المبروك" الذي يقرص بنات البلد دون أن يجرؤ أحد على أذيته خوفا من "صباح" الجنية التي تخاويه.

نلعب الاستغماية ونتفنن في الاختباء.

في هذه الليلة قررت "حُسنة" أن تختبئ في مكان من فرط قربه لا يتخيله أحد، فاختبأت خلف الساقية المهجورة.

كنت قريبة من الأولاد حتى أن أحدهم لو دقق النظر للمح ألوان جلبابي القطني، كتمت أنفاسي وأنا أضحك من غفلتهم، ولم أظهر حتى وهم يعلنون عجزهم:

– خلاص غلب حمارنا، اظهري بقى.

لكني تماديت وخشيت أن يعرفوا سر مخبئي، وفي حيرتهم اقترح "محمد" ابن عم إسماعيل: يمكن روحت!

– تعالوا نشوفها.

دفعني القلق والخوف من أمي إلى الخروج من مكاني، فما أن أداروا ظهورهم لي حتى صحت وأنا في منتصف الجرن:

– أنا هنا، غلبتكم.

حاولوا معرفة مكان اختبائي، حاولوا معرفة سري، ولكنه بقى طويلا في داخلي، وما دفعني شيء للتخلي عنه، حتى الملل من تكرار نفس الصيحة التي فقدت طزاجتها في فمي: أنا هنا، غلبتكم.

أنتظرها.. يهدهدني كرسيّ الهزاز، الكرسي الذي طالما تمنيته وحلمت به قبل أن أراه. كان الكرسي صغيرا بمقدار جسدي الذي تراكمت عليه السنون، وابتعدت عنه الشحوم، فظل الكرسي مجلسي الأبدي انتظر فيه كل الغائبين.. نتيجة الثانوية العامة لعاطف، خطابات منير من البلاد التي يسافر إليها. فيه أقرأ أول تحقيق صحفي لمنير عن مصيف رأس البر:"..مع الصيف تستيقظ المدينة من سباتها الشتوي وتدب الحياة في آلاف العشش والفيلات والفنادق، وتطوف مواكب الزهور في المدينة التي أطلق عليها العرب جزيرة دمياط. حتى عمَّرها مشايخ الطرق الصوفية احتفالا بمولد الشيخ الجربي.."

اسمه أسفل الريبورتاج بالبنط الصغير وعندما يعود أسأله متى سيكون اسمك بهذا البنط العريض مثل أنيس منصور، أو أحمد بهاء الدين؟

– بعد عشر سنين يا ماما.

تأتي السنوات العشر لكن اسمك مازال كما هو صغيرا منمنما بريئا. أحزاني هي التي تزداد مساحتها، والكرسي مازال يهدهدني، وأنا ملتصقة به، تحيط بي خمسة أعمدة من الخشب الزان يتوجها مسند مقوس لونه بني فاتح. ربما يكون قطعة الأثاث الوحيدة التي نقلتها من مكانها في الصالة الكبيرة إلى حجرة نومي. لكن هل امتلكت هذه الجرأة؟ أن أبدل وأغير في ترتيب السرايا الكبيرة. ما الذي كنت أفكر فيه وأنا أخطو خطواتي الأولي في عالم كل ما فيه فخم وغامق وثقيل ؟ لا شيء سوى تحسس موضع قدمي.. لعلي اشتريت هذا الكرسي من محل للأثاث بشارع "شريف" بالقاهرة في أول زيارة لها مع "فؤاد".. لا أستطيع التذكر وللتأكد، الأمر بسيط، أنزل للصالة وأرى إذا كان هناك كرسي آخر أم لا؟! هل أسأل ابنتي "راوية"..؟ لن تجيبني. بل ستصرخ في وجهي: إنت السبب، إنت اللي شجعتيها، فاكرة؟

نعم. ليلة فرح أول أحفادي، العريس عائد من "النمسا" والعروس بيضاء مثل ثلج كروت المعايدة، اللمبات النيون تنير المكان، لأول مرة منذ عاد منير صامتا، تهزني ألحان المزمار. العريس يشبه عمه المسجى دائما في صندوقه، عاد لي يرقص مع عروسه، وأصحابه يحملونه فوق أعناقهم والزفة الدمياطي تشيع البهجة وأنا في وسطهم، يهتز جسدي، أعيش الفرح الذي لن يقام أبداً، أهتز مع إيقاعاتي الداخلية، يتحرك جسدي في مدى

أوسع من حدوده، يحيط بي عوض وعاطف، تصفق الأيدي، وتستعجب العيون، تستنكر، الست الكبيرة ماذا جرى لها؟!

وحدها عيناها كانت مشجعة لي ومتعاطفة معي، وارتعاشات خفيفة تسري في ابتسامتها وهي تصفق وتشجعني: الله يا ستو.

تزداد اهتزازات الورود البيضاء على فستانها الأحمر وأنت تقرصينها غيظا وتبتسمين للنساء.

– اثبتي يا حبيبه عيب.

تطير اليمامة من قفصها وتتسرب من يدك إلى وسط الدائرة، وتشتعل حواف الدائرة بالتصفيق، يبتعد أبوها وخالها، ولا يبقى في مركز الكون غير نضارة ابنتك، وترتوي الروح من بهجتها، وتسيل دموعي المكبوتة، تتحرر ابنتك، وتنزوي أحزاني، حتى تكشيرتك المعقودة تغافلك، وتنفك رويدا رويدا، لماذا لا تعترفين بذلك، لو أنك اقتربت من الحفيدة والجدة وانضممت إلينا. لكنك احتفظت دائما بمسافة بيني وبينك، لم اكتشف وجودها إلا متأخرا، بعد أن فقدت القدرة على قفز الحواجز و الأسوار، وبعد أن تعودتِ على التقوقع داخل أسوارك.

وفي الصباح أعلنتيها:

– حبيبة هتروح مدرسة الراهبات الفرنسيسكان بالقاهرة.

مسافة طويلة بين "القاهرة" وبلدتنا القابعة على حدود "المنصورة".. أبعدتها عني، كما أبعدتني يوم مولدها، وأنا أحاول أن أقرب المسافة السحيقة بيننا وأنتظر يوم وضعك، أمسك يدك وأنت تصرخين: ساعديني يا ماما وأجفف عرقك وأضمك إلى صدري، ادفعي يا راوية، نفس عميق، مرة أخرى، شدي حيلك يا حبيبتي هانِت.

دفعتيني بعيدا عن باب حجرتك وأنت تناولين السائق حقيبتك.

– الولادة قيصرية، الدكتوره معايا، مفيش داعي للزحمه في المستشفى.

ودون سبوع ودقات الهون .. "اسمعي كلام أمك، ما تسمعيش كلام أبوك، اسمعي كلام ستو..." والسبع حبات فول وعدس و"حلقاتك برجلاتك، حلقه دهب في ودناتك"، ورجرجة الغربال الجديد وحرق البخور والشبة، الشرب من قلة العروسة المزركشة بألوان وأوراق زاهية، البيضة المسلوقة الموضوعة فوقها، لأطول الحاضرات عمراً "عقبال الحبايب"، وتوزيع أكياس الملبس وشيكولاته سيما وكوفرتينا، لن أشتري شيكولاته "داللو" فالحظ بها يسد النفس ولن يفرح العيال الذين تجمعوا حولي .."ما خدتش يا ست، خد يا حبيبي، إدي أخوك". زغاريد وضحكات وصخب يبتهج له المكان.. بينما يختنق الدور السفلي بتلاوة سعودية، مستعجلة، باكية، قارئ يبدو في بكائه أشبه بالمعددة.

بعيدة أنا عنك، تحيط بك نساء غربان في سوادهن، يقبلنك.

. بارك الله فيك يا أختي، بارك الله فيما رزق.

أية سبعينيات قميئة تلك التي أتت بالغربان إلى بيتي.

لكني سأقيم "السبوع" الذي أحب، وأبقي لها كيسين وكروتا.."شيلوني بحنيه، ماما تعبانه فيا".. "يا سعدك يا هناك يا لي شايل اسمي معاك".. "ست البنات السكره في اللفه منوره"..

فتفرح بي وتقول: مش هتأخر ياجدتي.

ولو تأخرت، كم ساعة سأنتظر؟ وماذا تعني الساعات أو حتى الأعوام وقد أصبحتُ عجوزا ..أرقد معظم الوقت في سريري، ألتف بشالي الصوفي فوق جلباب من الكتان، مطرز بوردات منمنمة من نفس النسيج، لكنها تلمع أكثر وفي قدمي "مانتوفلي" وردي لا يتناسب مع جو الخريف الذي أتنفسه. أراقب الشجرة التي تتساقط أوراقها. وحيدة بقيت، تتخلص من زينتها وبهرجها. تلتف حول نفسها وتفتح بابها الداخلي وتبحث في جذورها حيث تتخلق الحياة هناك بعيدا في رحمها، تنعش بويضاتها وتبذل ماء حياتها لنبت جديد. تتخلص الأشجار الصغيرة في سنواتها السبع الأولي من لحاها عاما بعد عام وعند تمام النضج تتدثر السيدة العجوز بكل ما لديها، وتراكم حكمة أعوامها وعندما يأتي من يقطعها يمكنه أن يعد حلقاتها ولفاتها ليعرف عمرها.

فهل تبحثين عن تدويرات ولفات أيامك؟

ماذا يفيد؟ وفي المساء حين يتخفف المرء من أعبائه ويصير كما ريشة، كما روح، أجلس وبجواري يجري نهر أيامي ، أراقبه وقد تساوت عندي البدايات والنهايات، وصارت كلها تيارا واحدا متجانسا ، أغرف منه ما يملأ كفي، فتتساوى مذاقات ه، سعادة، وشقاء، و تتناغم قطراته مع صلوات روحي.

لكن، أحقا لم تعودي تهتمين؟!

كنتِ دائما عند حسن ظن الآخرين وتتصرفين بما يتلاءم مع توقعاتهم، ما الذي يملأ الست حُسنة التي صرت إليها بالندم وهي تطل من شرفتها على النهر الساري فترى كل من ضايقها أو أغضبها يأخذهم التيار بعيدا ، تنادي عليهم، لا يردون، عيونهم شاخصة إليها، ويمنعها المتبقي من العمر أن تقفز خلفهم وتنضم لركبهم ، حتى الأجساد التي لا تعرفها تركن أمام شرفتها، تستريح قليلا في رحلتها، فتأمرين بإخراجها ودفنها في المقبرة التي بنيتها خصيصا لهذا الغرض. ويعودون إليك.

من أجلهم عندما تقدم لي فاطمة طبق تفاح آكل واحدة وأضع الباقي في "الكومودينو" كي أضايفهم رغم أنهم لا يهتمون بالطعام، بل يتكلمون كثيرا،

وأحيانا أخلط بين كلامهم فأمد لهم يدي بقطعة حلوي أو حبة برتقال.
"راوية" لا تصدقني.. خزعبلات، تخاريف، كوابيس.. اقرئي المعوذتين قبل النوم. لن تريهم ثانية.

أريد أن أراهم؟ لكن لو أنهم يوضحون ماذا يريدون؟

ماذا تريد البنت التي لا تفارقني ليلا، وهي تجري بخطوات أسرع من دقات قلبها، ولا تجرؤ على النظر خلفها، ومع كل خطوة تشعر بأنفاس الكلب على جلدها المترب، تستجمع قواها، وتتقمص روح أحد الأشباح الذين يملؤون المكان، وتمر من جواره دون أن يلمسها نابه، وتسترد روحها عند عتبة البيت.

نجت البنت، لكن مازالت آثار أنيابه تظهر على ساقك.. تصيحين في "حامد" البواب:

– الكلاب، لابد من التخلص منها ...

فيرد عليك الرجل الذي عمره من عمرك وربما أكبر قليلا، دون أن يرفع نظره عن الأرض

– ست حُسنه! سلامتك. الكلاب بعناها من زمان.

رغم ذلك مازلت واقفة تنتظرين من يعبر بك الطريق، والكلب مازال قابعا بنابيه وجلده الأسود اللامع كلون المنضدة التي اصطدمت بها عند دخولك

السرايا للمرة الأولى. سألت زوجك "فؤاد" عن نوع هذا الخشب البراق أجاب: أبنوس.

ابتسمت ساخرة: شفته قبل كده.

فهل حكيت له الحكاية، وأنت تستيقظين من نومك بجواره فزعة، قبل أن يغرس الكلب نابه في لحمك؟

ربما لم يكن لدينا وقت لهذا الحكي، عن الكلاب التي تظهر للبنات اللاتي يذهبن لشراء الجاز لأمهاتهن، وعندما يعدن يجدنه في انتظارهن لامعا كالأبنوس على الحدود، ولا يعرفن هل يعدن؟ أم يبقين وينتظرن أن يمر أحدهم وينقذهن.

تمر الدقائق والرعب يملؤهن، فيجف ريقهن ويتعلمن معاني جديدة عن الحياة. وفي اللحظة الحاسمة يخاطرن، ويقبضن على زجاجة الجاز، ويعبرن مغمضات العين.

وربما لم أحك له لأن هذا لم يكن يحدث لكل البنات، فقط بنت واحدة يمكن أن تعيش تلك اللحظات، حيث بيتها هو البيت الوحيد البعيد عن العمران والمطل على المقابر.هذه البنت لا يمكن إلا أن تكون أنا "حُسنة الفقي".

❖

# الفصل الثاني

وحدي أستمع إلى الحقائق المقبورة في الصدور، حين يتحلل المرء من نظرات اللوم، ويعطي ظهره لأيامه بنفس السخرية التي أعطته بها ظهرها، فخابت مساعيه حينا، وانكب على الطريق مرات عديدة.

في حضرتي لا تكون أنت كما عرفت نفسك، حريص على سمعتك وشرفك، حرصك الوحيد سيكون أن تخلع كل الأردية التي أخفت عفنك وكتمت رائحته.

في حضرتي تستيقظ الحواس يقظتها الأخيرة، فترى العين ما تغاضت عنه سنوات، وتسمع الأذن كل الهمس الذي تجاهلته، وتشم روائح القرب والبعد، وتلمس الشوق

والوجد، وتشعر بطعم الحب والكراهية فتسأل نفسك ما الذي كان يملأ فمي.

في حضرتي ستتيقن أن الله يُعبد بكل اللغات، لأن حواسك ستكون قادرة على ترجمة كل ما يقع في محيطها ، ما هو أبعد من اهتزاز أعواد الذرة، و سنابل القمح، ورفرافات اليمام فوق شجر السرو. ورغم قربي ، وتجلياتي في الأشياء، تدعون أنكم لم تقابلوني، فمن قابل الموت وعاد ليروي عنه؟!

في ليلة النصف من شعبان أدق الأبواب ولا أطلب أكثر من رغيف خبز وحفنة ملح فدية لآل البيت . في الآونة الأخيرة لم يعد كثيرون يهتمون بدقاتي ، ويصرون على غلق الباب في وجهي ، فمعذرة إذا تسربت إليكم من عقب الباب.

هل يبدو أنني غاضب؟ لا مطلقا، غير أنه يبدو لي أحيانا، أنني لا أفهم البشر، وأفعالهم التي تجافي المنطق، فالإنسان وحده القادر على كسر القانون الذي تسير به الأشياء ومع ذلك لا تتوقف الحياة ، ولكن في أي طريق تسير؟ كما أنه يترك ما بيده يتسرب منه، من أجل ملئها بما هو قصيّ، ثم يعود ويتذكر يده الفارغة ويطبق عليها. فحُسنة الفتى عندما صارت فتاة رزينة وعاقلة ، أصبحت

تدّعي أنها لا تراني، وربما حاولت مرات كثيرة أن تتوهم أن ما بيننا ليس سوى خيالات طفولة. ليس هذا فحسب بل تحتفظ بمجلة علي غلافها المهترئ صورة رجل عجوز، مم صوص الوجه والروح، ميت من قبل أن أراه ، ويلتف حول عنقه ذراع وجمجمة ، تعلوه بخط الثلث عبارة : "الموت يعانقه ولكنه لا يشعر ولا يحس". ما أجهلهم حين يصورونني بهذا الشكل المخيف، ما لي أنا والتوعية ضد المخدرات، اللعنة على الرسام الذي يشوهني، وقسما بربي لأذهبن إليه حين يأتي اسمه في الكشف على نفس الهيئة التي رسمني بها، وسوف ير ى نتيجة ما رسمت يداه.

لست غاضبا ، لكني مستاء، فكيف لحسنة أن تنسى وتنكرني..

كنت أحوم حول البيت الوحيد المجاور للمقابر، وكلما اقتربت، تغمض أمها عينيها كي لا تراني، وتغيب عن الوعي فتصرخ النسوة ويدعكن صدرها ويديها بالخل، يحاولن إفاقتها، وبعد جهد تفتح عينيها الملتهبتين من حمى النفاس وتصرخ وتردد اسم زوجها، والنساء يوقنها، و لم يلاحظن أن الصغيرة كانت دائما مبتسمة ولم يكن اقترابي منها وإغفاءات أمها تهز ابتسامتها، إحساس راسخ بالأمان ينير وجهها ذا الأيام السبعة، وكان الأمر قد

صدر لي، لكن أصابعها التي لمست جلدي جعلتني أرتعش، شعرت بأشياء لم أكن أدرك وجودها تتحرك في داخلي، تسربت لي منها أحاسيس آدمية، وملأت روحي بالشفقة، تشتت ذراتي ، تغيرت ملامح خلاياي وفقدت السيطرة على عيني، فانهمرت دموعي وأنا أصعد إلى السماء في أشواطي السبعة، كنت أبكم فتحرك لساني الصامت ولهج بالدعاء والتوسل، ابتسامة الرضيعة، ترحيبها الهادئ قال لي: موعدك ليس الآن.

أخذت أصعد إلي السماء، وفي كل مرة أتأكد من أمر الرب، فأعود لأداء مهمتي، ولكن ابتسامتها تجعلني أصعد ثانية، ست مرات، وفي المرة السابعة تبسم وجه الرب، وانتعشت روح أمها، وبدأت تشرب مرقة الدجاج من يد قريبتها، وذهبت إلى مواعيدي الأخرى.

لا يمكن أن أصف "حُسنة " بأنها ناكرة للجميل، كما لا يمكن أن أصفها بأنها جميلة، شعرها مثلا متوسط الطول، ظلت تحلم دائما بالشعر الطويل ، ورغم أنها رمت خصلة من شعرها في النيل أيام الفيضان لكن شعرها كان نموه بطيئا، فلم تعد إلى قص أية خصلة منه، وفيما بعد تحولت كثافة شعرها إلى نعمة حمته من التقصف الذي تحدثه مكواة الأسطى سيد الكوافير كل أسبوع. لم يكن في حسنة الصغيرة ما يميزها لكن

ملامحها العادية هذه ستتغير مع السنين، و تتغير معها أشياء كثيرة في حياتها، حتى ليبدو أنها تخلع بين حين وآخر صفاتها، وتكتسب صفات جديدة.

وما يثير الدهشة أن الصفات القديمة والجديدة هي جزء لا يتجزأ منها، بما لا يجعل أحد آ يلاحظ هذه التطورات، فقدرتها على التكيف والمواءمة تجعلها في كل الأوقات السيدة الأجمل دائما، وبمرور الوقت ستكتسب نوعا من الجمال يُطلق عليه خبراء الإعلام جمال الشهرة، وتُسمِّيه "حُسنة" جمال النعمة.

تتكرر هذه الأشياء كثيرا في حياة "حسنة الفقي "، فبعد أسبوع من ميلادها تنبه أبوها "حسين الفقي"، وهو يقبل كفها الأيمن، إلى وجود "حَسنة" ذات لون بني فاتح في وسط كفها. وسيقرر على الفور أن يسميها "حَسنة "، وسيعتبرها نعمة من الله، لكن هذا الاسم لن يظل ملاصقا لحُسنة الفقي، فعندما يجلس "فؤاد الكاتب " على يمين الشيخ "حمودة" مأذون "الزرقا" و يده في يد "حسين الفقي " والشيخ "حمودة " يطلب منه : "ردد خلفي زوجني ابنتك حَسنة الفقي البكر الرشيد "، فيردد فؤاد: "زوجني ابنتك حُسنة الفقي البكر الرشيد"

ويجيب الأب مُقِّلدا البيه وضاما الحرف الأول من اسم حسنة " زوجتك ابنتي حُسنة الفقي البكر الرشيد"

وكما يتغير نطق الاسم، تزيد حروفه حرفين آخرين في مقدمته ليصبح "ست حُسنة". لكن علاقتي الوطيدة بها، وألعابنا التي لم تنقطع ستعفيني من أي حروف زائدة، وتبقى بالنسبة لي ولكم فقط حُسنة الفقي، إلا إذا مر بها أحدكم ورآها في شرفتها وعلى كتفها شالها الأسود شتاء أو الأبيض صيفا، تتطلع إل ى النهر، وتراقب أيامها التي كانت والأيام القادمة، وأراد أن يسمع صوتها الباسم، فالتحية التي تحبها: سا الخير يا ست حُسنة.

تقبلت تغيير نطق اسمها، بنفس قدرتها على التواؤم مع كل جديد وغريب ، ويمكننا أن نخمن بأن هذا ما جعلها تتأقلم مع البيت الكبير فلم ترفض يوماً فكرة أو كلمة جديدة ، بل وتداري في أحيان كثيرة عدم فهمها، وقلة استيعابها وتردد بينها وبين نفسها بأن غدا سيأتي وستفهم أكثر، ولم يكن هذا الغد يتأخر كثيرا عليها، بل يبدو لي أنها كانت تتعثر دائما في طريقها بهذا الغد، بنفس المهارة التي يتعثر بها أطفال بلدتها في حجارة الطريق.

في كل خميس تذهب "حُسنة " إلي السوق الكبير في بلدة "ميت زهرة". يقولون إن بنات ميت زهرة جميلات، ويلمزون إلى استقرار جنود الحملة الفرنسية فيها، وأنا لا أوافق على هذا الرأي مطلقا، فهن لا يمتلكن سوى بياض

فاقع، وبعض الألوان الفاتحة تتوزع على العيون، كما أن وجوههن المستطيلة العظام تنفي عنهن أي مسحة رقة أو جمال، وإصرارهن على أن الرشاقة عار، وأن الجميز هو أفضل الأشجار، يجعلني لا أستطيع أن أخبركم عن الثقل الذي أعانيه حتى يتخدر ذراعي، وأنا أصعد بأرواحهن إلى السماء.

تحمل "حُسنة " وهي في طريقها إل ى السوق بعض الطيور.. بطة أو دجاجة، عددا من البيضات، تكمل بثمنها ما تحتاجه من طلبات للبيت، وأحيانا تشتري لنفسها قطعة قماش أو حلاوة طحينية لأخيها "يحيى"، ولم يكن عليها لكي تصل إل ى "ميت زهرة" سو ى أن تخترق الشارع الرئيسي في بلدتها الذي ينتهي بالطريق المسفلت والسرايا الكبيرة والنيل مباشرة، وتسير على الطريق المسفلت خصيصا لعربة البيه "الباكار" موديل 1933. والموازي للنيل وتقطع مسافة كيلومتر حتى تصل إلى "ميت زهرة" وعند مدخل البلدة، وقبل أن تصل إلى "الوسعاية " التي ينصب فيها السوق، كان هناك بيت مكون من دورين يحلو لها التطلع إليه، وكان من عادة الفلاحات أن يطرقن على باب بعض الدور المجاورة للوسعاية طلبا لشربة ماء، والدعاء بالصحة والعافية، لكن هذا البيت لم يكن يكتفي بذ لك، بل كانت هناك ثلاثة أزيار كبيرة ممتلئة بالماء دائما.

بعد أن انتهت حسنة من بيع "دكر البط" وشراء رطلا من اللحم، دون أن تنسى الكمون والملح اللازمين للعشوة الحلوة، والأهم حصان الحلاوة، وخمسة أقراص حمصية، وقرصين سمسمية، وربع كيلو حمص، وحفنة من نبوت الغفير وخرطة ملبن، احتفالا بالمولد النبوي.

اقتربت من البيت المكون من دورين وحديقة صغيرة، كان الزير قد اقترب على الانتهاء وهي لا تحب شرب الماء المتعكر والمتبقي المليء بالشوائب، وبينما هي تهم برفع شيلتها نادتها سيدة شابة شقراء، كانت "حُسنة" تلمحها وهي تستمع إلى الراديو في الفراندة ، نادتها السيدة التي تعاني من الوحدة ومن غرابة اسمها "الياصابات " والذي تتنوع الطريقة التي ينطقها بها الفلاحون الذين يأتون لزوجها الدكتور "ناجي" طلبا للعلاج، البعض يسميها اللية لبياض جسمها الشديد وامتلاء مِؤخرتها، والبعض الآخر يسميها الصُباتة لحمرة وجهها.

بالطبع لم تكن السيدة "الياصابات " التي تلقت تعليما في مدرسة "نوتردام " في طنطا تعرف هذه الدعابات وحتى إن عرفت فإن خفة روحها ستجعلها تسخر هي الأخرى وتضيف لنفسها لقبا جديدا.

دعت اليصابات "حُسنة" لكي تشرب، وسألتها عن اسمها وبلدتها وقدمت لها طبق عاشورة، وكانت المرة الأول ى التي تسمع فيها عن هذه الأكلة، وستحاول حُسنه ألا تنسى السؤال عن اسم هذا الطبق وكيفية صنعه.

وعند الياصابات التي لا يزيد عمرها عن خمسة وعشرين عاما، وإن كان من يراها يعتقد أنها في الأربعين- في الواقع لم يكن أحد يهتم بعمرها فالمرأة إما طفلة لا تصلح للزواج أو متزوجة أو أرملة- بدأت حَسنة التي ختمت القرآن الكريم منذ عامين وتعلمت مباديء القراءة والحساب، تمسك في يدها مجلات وجرائد وتستمع إلى الراديو عجيبة تلك الأيام، وانفتح لها للمرة الأولى عالم لم تكن تعرف حت ى أنه موجود، وبتوثق العلاقة مع الياصابات سألتها عن سبب إقامتها في الدور الأرضي وليس الدور الثاني فابتسمت وقالت لها برقة:

– أحسن يا حَسنة، علشان يبقى سهل عليَّ أشوفك.

لكن هذه الإجابة لم تقنع ها ، فهي تشعر أن الأدوار العلوية بها شرفة، وأن الغبار من السهل أن يصيب طقم الصالون النبيتي المذهب، الذي رأته وجلست على وروده القطيفية، وأنه يستحق الدور الثاني، ولما ألحت في طلب الحقيقة ودفعا للخجل عن السيدة الرقيقة ، وجب عليَّ أن أشرح لها بعض ا من حقائق الحياة التي

ستعرفها فيما بعد ، فما تراه امتيازا للدور الثاني كان ممنوحا لزوجة شقيق الدكتور خوفا على أولادها من اللعب في الشارع، رغم أنهم يلعبون فيه، لكني أشفقت على قلب البنت الصغيرة التي ستعرف في الأيام القادمة ما هو أكثر عمقا وإيلاما من مجرد النزول من دور علوي إلى دور سفلي.

أعجبت حُسنة بماكينة الخياطة التي تمتلكها الياصابات ، وتعلمت أن تجلس عليها ، وأن تحيك بعض القصات البسيطة، كما تعلمت بعض أشغال الإبرة من المفارش والناموسيات والستائر.

وفي أحد أيام الأربعاء عرضت اليصابات عليها قطعة قماش جديدة لونها أخضر عنابي ومنقوشة بزهور بيضاء لتفصل لها جلبابا جديدا متوسط الطول، وبتقسيمة من الوسط، وكرانيش دائرية حول الرقبة، وعندما همت بأخذ مقاساتها استنكرت حَسنة وقالت:

– يا ست الياصابات حرام تفصيل الهدوم يوم الأربع ، الهدوم يا تتسرق،

يا تتحرق.

لكن اليصابات استكملت عملها وأدارتها: ـلفي آخد قياس ظهرك.

ولم تجرؤ على إخبار أبيها عن الجلباب الجديد إلا يوم الخميس، كما لم تجرؤ على إخباره فيما بعد أن مهنته التي اتخذ منها لقبا سببت لها قلقا كبيرا..فحُسنة الفقي لا علاقة لاسمها بعائلة الفقي الإقطاعية ولا بالممثلة الشابة " نيرمين الفقي " التي ستظهر وحسنة سيدة تتخطى عامها الستين بثقة وثبات تدعمه ما برفضها الدائم لصبغات الشعر القديم منها والجديد.

وظلت تحمد الله كثيرا أن أخاها "يحيى" سافر في بعثة للدكتوراه إلى ألمانيا قبل مقتل "صلاح حسين " الذي تزعم مقاومة أهالي كمشيش ضد الممارسات الظالمة لعائلة الفقي قبل الثورة وبعدها. فقد وصل جبروت العائلة إلى استخدام القوة المسلحة ضد الأهالي وقيام عائلة الفقي باعتقال زعماء أهالي كمشيش وحبسهم في قصر الأسرة، ودفعهم للقاتل "محمود خاطر " لقتل "صلاح حسين".

كانت تتابع باهتمام ما تكتبه الجرائد، كانت هذه الأوقات من أصعب الأيام في حياة زوجها "فؤاد الكاتب "، وكل من كانت له أراض زراعية خضعت للإصلاح الزراعي وامتد أثرها لأكثر من عام وفاجأهم عبد الناصر وهم مجتمعين في عيد العمال بقوله "السنة اللي فاتت مات الشهيد صلاح حسين في كمشيش، ونبهنا مات ازاي ..

قُتل.. قُتل بعد 14 سنة من الثورة بأيدي الإقطاع .. في كمشيش في الوجه البحري هنا.. مش حتى في مجاهل الصعيد.. جنبنا .. جنب القاهرة، وجنب دايرة أنور السادات. وازاي الكلام ده يحصل؟ معناه ايه؟ معناه إن احنا كنا نايمين على الثورة المضادة اللي موجودة في البلد. إذا كان الاقطاعيين بيطلعوا ويموتوا عيني عينك، جنب دايرة أنور السادات وفي المنوفية، واحد فلاح لأنه بينادي بحق الفلاحين وبينادي بإنسانية الفلاحين"

يمكنني أن أفشي سر ا عن حسنة فهي لم تحب أبدا صوت عبد الناصر ، كانت تعتبر صوته أضعف ما فيه بينما قامته وعين يه سر قوته ، وعندما تابعت على الشاشة الانحناءة الخفيفة التي في ظهره بكت ، وتمنت أن يموت قبل أن ينحني أكثر، لكن بعد أن مات ، ومات من جاء بعده، وبدأ التلفزيون يفرج عن صوته فتذاع أجزاء من خطبه تعودت عليه وأصبح الحنين إليه يم لؤه ا، والحقيقة أنها لم تصرح بهذا الرأي أبدا، بل كانت تدافع عن عبد الناصر وتبرر دائما أخطا ءه حتى وإن حكت في صدرها، وظلت تراه مثل كل النساء -عدا "زينب الغزالي" و"حميدة قطب"- ملاكا أو ع لى الأقل نبيا حتى أنها سألتني: إنما هو نبي ولا ملاك؟

فأجبتها: الموت نفسه ملاك.

ارتبكت ، فهل يمكن لعيني ناصر الثاقبتين.. أن يعرفا علاقتها بالحريق الذي نشب في جسد "أم الخير" زوجة "حامد" البواب.

بدأت حُسنة تشعر بالألم في أماكن متفرقة من جسدها، وتلاحظ ظهور بقع زرقاء في أماكن الألم، استشارت الدكتور "ناجي"، طمأنها أن الحالة بسيطة وربما أصيبت بهذه الكدمات دون أن تشعر، لكن الألم تزايد عليها ولم تفلح الدهانات التي كتبها الدكتور "ناجي" مع البقع التي تختفي نهارا وتظهر ليلا، أشارت عليها خادمتها "فاطمة":

- البقع الزرقا في جسمك يا ست حُسنة لازم من فعل الجان - يجعل كلامنا خفيف عليهم- يمكن يا ست عاكستيهم ورميتي ميه سخن ه على أرض الحمام أو صرختي فيه، لازم نرش الحمام، وأوضتك بميه فيها عرق الحلاوه وبذر الرجلة وربنا يأذن بالشفا.

لكن "حُسنة " ظلت بأوجاعها ، فنصحتها "فاطمة" أن تذهب إلى أحد الشيوخ المبروكين في "السرو" أو يأتي هو إليها لكنها خشيت من غضب "فؤاد"، وهي نفسها لم تكن ترى داعيا لذلك.

– طيب على الأقل يرقيك، يا ست أنت لازم محسودة، أو مسحور لك .

وافقت بشرط ألا يعرف أحد ممن بالسراي.

جلست في منتصف السرير، وأخذ الشيخ يمر بيده على جسد ها ورأسها وهو يتمتم: " بسم الله، حبس حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس في عين العائن، اللهم رد عين العائن عليه في ماله وولده وأحب ما لديه، ونكس اللهم برأسه بين رجليه، وخذ كلمته من بين شفتيه، ورد اللهم بأسه عليه، ماء رقيق ولحم سميق وعلى العين لا تضيق، فارجع البصر هل تر ى من فتور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير، النبي ضلعت ناقته، قامت ولحقت، فلا عظم كسير، ولا دم يسيل، في عين الفكر ما ذكر من كل أنثى وذكر، يا عين يا عائنة، يا رديئة يا خائنة، يا حمراء مثل اللحم، يا بيضاء مثل الشحم، يا سوداء مثل السجم، اللهم اكفف حُسنة شر العين السوداء والعين الحولاء والعين الرقطاء والعين السوداء. والسماء ذات البروج وكل عين تلوج والشمس وضحاها لكل عين تراها، هل أتاك حديث الغاشية لكل عين ماشية ، والطور وياسين لكل عين تعين، والسماء والطارق لكل عين خارق، هل أتاك حديث الغاشية لكل عين ماشية ... " ثم قرأ آية الكرسي والمعوذتين والإخلاص.

جلس على كرسي في مواجه تها وقال لها : يا ست أنت معمول لك عمل على أظافرك المقصوصة ، والألم يحدث لك كلما حرق جزء منها.

سألته الخادمة: ممكن تفك العمل يا شيخنا؟

- أنا هعملك عروسه معكوسه وإنت لما تشعري بالألم غ زيها بالإبرة، سيصل ألمك إليها، وستعرف أنك كشفتيها وتبطل أذاها عنك.

جهز الشيخ العروسة، وأوص ى حُسنة باستعمالها عندما يأتيها الألم، أبدت حُسنة ترددها أمام فاطمة ، وأظهرت عدم مبالاتها بحديث الشيخ، وعندما حل المساء وبدأت البقع الزرقاء تنتشر في جسدها، غرست الإبرة.وكلما غرست أكثر كانت شدة الألم تتفاوت، طغت عليها رغبة في معرفة الفاعلة، ربما أكثر من رغبتها في تخفيف ألمها، فأحرقت العروسة. وفي اللحظة التي أمسكت النار في العروسة، توقف طنين الألم، ولكن صرخات متوالية وصيحات "إلحقوني" بدأت تتصاعد، وعندما خرجت إل ى الشرفة رأت كتلة من النار تتمرغ على عشب الحديقة و"حامد " البواب يلفها ببطانية، وعرفت أن وابور الجاز شب في جسد "أم الخير" وهي تجهز الشاي لزوجها

وفي مستشفي الزرقا الأميري همست لها "أم الخير " وهي مربوطة بالضمادات:

– سامحيني يا ست حُسنه، الذنب ذنبك.

امتقع وجهها وهمست لها وهي تصر على بقية قصاصة أظافرها التي أصبحت تحرقها بنفسها:

– ربنا يسامحنا كلنا.

واحتفظت بسرها ولم يخطر على بال "فاطمة " أن تسأل سيدتها عن العروسة، كما أن ناصر نفسه كانت تخبئ له الأيام مشاغل أهم بكثير من اشتعال النار في جسد فلاحة أيا كانت الأسباب، فبعد أقل من شهر وخمسة أيام من خطابه السابق كان ناصر قادرا على جمع شمل آل الكاتب حول التلفزيون ودفع حُسنة إل ى أقصى حدود البكاء.

❖

# الفصل الثالث

كيف يمكن ليوم أن يكون مختلفا عن بقية أيامك؟

يحدث أحيانا أن تفتح عينيك، وأنت في سريرك، فتداعب وجهك نسمة صباحية، تشعر بها في التموجات الراقصة للستائر البيضاء، قبل أن تلمس وجهك، وترى قمة شجرة "أكاسيا"، وفروعها متوجة بزهور عنقودية وردية نابضة بالحياة، وأخرى بيضاء تصالح روحك على العالم، وتتأكد لحظتها من تمايل ذؤابات النخيل وسعفه أن نومك كان عميقا دون أحلام..

وفجأة تتساءل: ما الذي أتي بي إلى هذا المكان؟.

الحجرة الواسعة التي تطل بشرفتين على الحديقة، فأرى النيل من ناحية، والمقابر وبيت أبي من الناحية الأخرى، أي أشياء كنت أفتقدها؟. برج الحمام؟.البيت المعزول تحاصره أشباح وحدته وأرواح آلاف الغائبين؟

في الظهيرة يعود أبي من جولته الصباحية، أجري عليه، يمسك بيدي يلف بي، أدور معه، تخايلني أشعة الشمس، أغمض عيني، تتداخل الأشكال.. البيت، الأشجار، المقابر، الهواء الذي أحلق فيه، الأرض التي أقاوم جاذبيتها. تنمحي التفاصيل، ولا يبقى غير أبي المتمركز في وسط الوسعاية الممتدة لأبعد من ضحكاتي أو حتى صراخي.

رق جلدي وشف حتى أبان كل ما يحفظ من لمسات حانية لأصابعه الأربعة، تطمئني وأنا شاردة في دوافع السيد الكبير لطلب يدي. أستعيد ذبذبات صوته الدافئ، التي تجمعت في أطرافه:

– يا بنتي لن يغصبك أحد على أي شيء، لن يتم أمر دون رضاك.

ولما طال صمتي..

– لو ترغبين في ترك البلد نتركها، أنا كل اللي يهمني راحتك.

هل مازال شعري يحتفظ بقبلته الوحيدة على رأسي أم إن ما كان يوما قمة رأسي أصبح في الأطراف؟ لماذا حدثني أبي بهذا الشكل؟ ولماذا ترددت؟ ربما لأن ما حدث فاق تصوري، حتى بعد الزواج ظل لدي سؤال كلما استيقظت، ماذا أفعل هنا؟ وينازعني حنين دائم لبيتنا.

مع الغروب يثقل على إحساس الغربة. البيت الساكن الكامل حيث لا شيء يحتاجني، الأثاث ثقيل، صامت، مليء بحواديته التي لا أعرفه ا، دون شفرة أحاول فك رموزها.

من أين أبدأ؟

تجذبك الكنبة البندقية اللون المطعمة بالفضة، والتي ورثها "فؤاد" عن جدته، هو مشغول بعالمه، وأنت تتململي ن في السرير انتظارا لعودته، تنتقلين إليها، تفتحين الراديو، أم كلثوم تغني من فيلمها الجديد "حأقابله بكرة". ترفعين الخدادیات الكتانية المشغولة بغرز وخيوط بدوية، يفاجئك غطاؤها الأملس تفتحينه فتتحول إلى سحارة، تسعك وتستوعب أسرارك، تتأملين الوحدات الزخرفية الفضية التي تشبه أذنا كبيرا تتكرر بعرض السحارة، تبدي استعدادا دائما لالتقاط همساتك، وعلى قاعدة المسند تتجاور زهرات عباد الشمس منحوتة في الخشب، وقلوبها ممتلئة بالفضة، تتابعك أينما ذهبت وتبتسم في وجهك، تبدي ترحيبا دافئا بفتاة غريبة.

كم من الوقت تحتاج لتتعرف على عالمك ويصير جزءا منك ويصبح داخلك؟ حين يتم هذا تكتشف أن كل الأشياء صارت قديمة، وأن بالحياة أشياء أخرى لا تعرف عنها. فمتي اكتشفت أن عالمي صار قديما؟.. لا أتذكو..الكهرباء تأكل ظلي على الأشياء، تخفي الأبعاد، تسير وحدك في أمان دون خوف من ظلك الممتد حتى السقف.. الكهرباء تكشف كل

شيء.. كل الشقوق التي ملأت الجدران، البقع الصفراء، الرشح في حوائط الحمام، الألوان الكالحة لصالوني القديم.. كل شيء.

يحتاج البيت إلي ترميم، تجديد. كل البيوت التي أدخلها لم يصبها تغيير. كل الأشياء الثقيلة علينا التخلص منها، توسيع النوافذ في الصالة الكبيرة، ضوء قليل يدخل إليها، فتبدو غائمة في ضباب أبدي. نحتاج لشراء أدوات منزلية لم أكن أعرفها، حلل، أكواب، صواني تقديم، أطباق فاكهة، راديو، قماش للستائر. مللت بيتي القديم، الأثاث، الأبواب، تعجبت من شجاعتي وقدرتي على الشراء وفتح دولاب الفضيات وتجديده. الفضة دائما معدني المفضل، رغم بريق الذهب المبهرج، الذي يبدو لي رخيصا إلى درجة التقليد.

تبيع الزوجة مصاغها كي تساعد زوجها وتشتري من إحدى العربات نفس شكل الغوايش، ولكن بجنيهات قليلة، وترتديها في الأفراح: يا ست أهم منظر.

الذهب، لا يحترق ولا يصدأ، لكنه يقوي القلب حتى يميته.. تجلس زوجة "النحال" الكبير في الصالون، تشخلل بأساورها الذهبية وهي تقول: نريد ابنتكم "راوية" لابن ابني "عوض"، يترك "فؤاد" القرار لراوية، "منير"و"عاطف" على استعداد دائم للموافقة على ما تريده أختهما، وأنا مترددة، لا يوجد في الشاب ما يعيبه، يدير أعمال عائلته، قليل الكلام، لا

يوجد ما يميز هغير خاتم كبير من الذهب يتباهى به. الفضة لا أحد يتباهى بها، لذا تحفظ مكانتها أبدا، بعيدا عن الغش.

مدة تجديد البيت كانت أكثر الفترات التي تقاربنا فيها أنا وفؤاد.

عرفت خلالها ما لم أعرفه في سنوات.. معاملته للبائعين، صبره على الشراء، بل كان هو الذي يقودني إلى اكتشاف أشياء جديدة تنقص البيت، والميزانية مفتوحة. انهمك في الأمر حتى أنه أتعبني، أنهكني، وبدا كأن التجديد لن تكون له نهاية، وعاد طفلا لعبته الوحيدة بناء البيت من جديد، حتى أنه أهمل مكتب المحاماة، وقادته رغبته في التغيير، إلى عمل مشروعات جديدة، انتقلت إليه روح المقامرة، روح لم تكن له أو ربما اكتشفها في نفسه، وكانت تجارة تخزين البطاطس مازالت في مهدها، فبدأ في بناء ثلاجة للخضر والفاكهة، تخزن البطاطس والبصل والجزر.

هل كانت الأشياء التي لم نخترها معا هي التي وقفت عائقا دون التحامنا واندماجنا كعاشقين؟ .. ربما.

أوائل الستينيات لم ترد أية فكرة للتغيير، كان الوضع مستتبا والتطورات لم تكن في صالح أي تغيير أو هكذا خيل لي أنا و"فؤاد"، حتى أننا لم نتكلم في هذا الأمر. كان الحديث عن قوانين الإصلاح الزراعي، الفدادين التي

اختصرتها القوانين من مساحة الأرض التي كنا نملكها.. التي كنا نملكها؟!

تتحدثين الآن كإقطاعية قديمة. وأنت التي ظللت لا تعلمين حقيقة مساحة الأرض التي يمتلكها زوجك إلا بصدور قوانين الإصلاح، لم تسألي يوما عن مساحة الأرض، أو مقدار الثروة حتى لا تتهمين بالطمع.

أنا وجسدي كلانا يراوغ الآخر ولا نتفق، كل في ناحية، يرغب في الاستكانة وأرغب في الاستناد إلى العصا الأبنوس التي توارثها "فؤاد" عن جدوده، وكان ينوي أن يستند إليها في أواخر أيامه لكنه لم يحتج إليها.. في الصباح الباكر أمرّ في أرض السرايا، أؤجر الأرض المتبقية للفلاحين. أقبل أن تباع الأراضي البعيدة، الأولاد دائما يحتاجون للنقود، لهم مشاريعهم الخاصة، "عاطف" مع كل نقلة إلى عاصمة أوربية يحتاج إلى النقود، تقول "راوية": الدولة توفر لمبعوثيها في الخارج كل شيء، لكنها تطلب ما يكفي لبناء مدرسة عمر بن الخطاب النموذجية، تبنيها في المنصورة، أهالي البلد لا يتحملون مصروفات مدرسة يشترط للقبول بها إجادة الوالدين للغة الإنجليزية، الأرباح مضمونة، وربما تتحول لأول جامعة إقليمية خاصة. أبيع عمارة الرمل، الإسكندرية بعيدة، لا نذهب إليها كثيرا، إذا سافرنا يمكنني أن أؤجر شقة في البرج الذي ارتفع مكانها، لكن تظل السرايا كما هي بنفس المساحة وسورها وأشجارها..

أحيانا أدور حول سورها الحديدي الذي تتقارب قضبانه يرتفع جزء من الحديد، مربعات متجاورة، في وسط كل واحدة دائرة تبدو كقرص الشمس تشرق منها أربع شعاعات، تصل إلى الأطراف الأربعة للمربع الحديدي، الذي يحد من انتشارها، وترتكز على قاعدة من الطوب الوردي، بعرض قالب طوب، تركن عليه الفلاحات القادمات من السوق أو من ماكينة الطحين طلبا للراحة، تجلس الواحدة منهن، وتمسح عرقها في طرحتها، هذا إذا لم تفزعها نباح ثلاثة كلاب مربوطة بجوار السور، وقد يوقع إحداهن حظها العاثر، أو جهلها فتجلس قريبا من مربطها، فتأخذ نصيبها من السرايا خضة رهيبة، وقد تهرب وطرف طرحتها في فم أحد الكلاب، أو تتعثر ويسقط ما بسبتها أو طحينها، بجوار السور يتكوم التراب المخلوط بدقيق عشرات الفلاحات أو ببعض قطرات من دمهن..

كنت تنوين التخلص منهم بمجرد دخولك السرايا فما الذي أنساك؟ أم أصبح لك ما تخافين عليه ويحتاج إلى حراسة؟ وأنت التي كنت تمتلكين كل الأشياء وهي بعيدة عنك..

ربما ظللت داخل السور سنوات طويلة، أتحسس السور والأوراق التي تخرج منه. تنتشر على السور ورود الشبيط وتمتد تفرعاتها لتتجاوز ارتفاعه.أشعر بالأمان، ما ألمسه هو الموجود والباقي خيال، أوهام، لا أتذكره، وبدون أصابعي كان على أن أشك، في الجغرافيا، في التاريخ،

حتى في أسباب وجودي في هذا البيت..الجغرافيا هي أركان حجرتي.. التاريخ هو الأبطال، رمسيس، عنترة بن شداد، صلاح الدين الأيوبي، سعد زغلول.. التاريخ ما فعله العظماء، هذا ما كنت أتصور، لكن جاء الوقت الذي صار علىَّ أن أراجع تصوراتي، وأن أعرف شيئا عن ابن خلدون وتاريخه المتعاقب. فهل يعيد تاريخي نفسه؟ وهل تتكرر أيامي وأبدأ من حيث انتهيت؟ أم إنني مجرد ذرة في الدورة الكبيرة.

في جيبي مذكرة أدون بها ما أرغب في تذكره، لكن ما هو؟ لا يهم سأتذكره حين يصير بعيدا.عندما يتقدم بنا العمر يتجسد ما في نفوسنا بشكل كبير.. الغيرة، حب التملك، الطموح، الخوف...

تخافين القطارات؟

القطارات داهمة، تأتي وترحل فجأة ولكن أثرها يبقي في النفس، ذكرياتي معها سيئة، يوم سفر "يحيى" من محطة المنصورة إلى القاهرة.

كنت تريدينه بعيدا عن البلدة.

ربما، كنت أريد عائلة كبيرة، نواة لعائلة الفقي، وكان عليه القيام بهذه المهمة، حين يصبح طبيبا مشهورا ويفتح عيادة في القاهرة أو على الأقل في المنصورة ستسعى العائلات الكبيرة للتقرب منه.

اصطحبته إلى القاهرة بالقطار لم نسافر بالسيارة، كان شيئا خاصا بين أخت وأخيها الوحيد، الذي تدخره لأوقات المباهاة، التي كانت حتما ستأتي.

القطار قاس، قلبه من الصلب لا يرق لا يلين ولا يشعر بالندم، فقط يسير إلى الأمام، لا أستطيع التحكم فيه، لا يعرفني ولا يمكنني أن أهمس له: من أجل خاطري، فيغير مواعيده ونجلس قليلا في المساحات الخضراء بعيدا عن المكتب وثلاجة الخضر ودفاتر الحسابات ..

تخافين القطارات، الماكينات التي عندما تتعطل لا تعمل إلا بالدم الساخن الطازج.

و"رحيل" كانت تجسيدا لخوفك، تسكن في الجهة المقابلة للبلدة حيث يفصل بين الناحيتين خط السكك الحديدية، ذهبت أمها لقضاء حوائجها.. لم تشعر بما حدث لها إلا عندما استيقظت ومضى القطار بعيدا.

مع هذا لم تغضب "رحيل" يوما منه أو تخافه بل كانت تستخدمه للتنقل بين المنصورة وطنطا، والبلد. وعندما أزيلت القضبان الحديدية من أمام البلدة قالت:

– أنا عمري ما خفت من القطر، القطر ما أكلش دراعي، الغفله هي اللي أكلته.

لا تنام أبدا، تغفو وهي جالسة أو مستندة على كرسي. كثيرا ما كانت تأتي للبيت وفي صرتها بعض مما أحتاج إليه.

طبعا لم يكن لاستخدامك الشخصي، فكيف يمكنك وقد تعودت على ما تبيعه محلات القاهرة أن تستخدمي ما تبيعه "رحيل"؟! حتى لو ادعت أنه أغلي ما في محلات المنصورة، تهادي به الصغيرات، والعرائس من أهل البلدة. أو ربما الرغبة في القيام بدور المحسنة.

أستقبلها في حجرة الضيوف حتى إذا ما استراحت وتناولت غذا ءها وبعد مشاهدة ما تحمله من قماش أو إيشاربات أو عبايات، أتركها وفي يدها كوب الشاي، وعندما أعود لها بالنقود أجدها قد أسندت رأسها لرجل كرسي الصالون المذهب ووروداته الزيتية على القطيفة البيج الغامق، أغلق عليها الباب، تعلق فاطمة:

- معقول يا ست ولو حضر ضيف.

- نصحيها يا فاطمة.

تتعاطفين معها.

تعجبني صراحتها.. تمد ذراعها بالخمار، تعيده لراوية

- الخمار خنقه ولخمه. وماله إيشاربي ده!

- ربنا هيغضب عليك.

– هيغضب عليَ! ازاى؟ هيأخد دراعي التاني؟ يا ست أنا راضيه بقضاه، عمري ماسألته ليه؟ سيبي الغضب والرضا ليوم الحساب.

أما الأكيد فهو أن رحيل كانت نشرة أخبارك المحلية، وستصبح شريكة لك.

جاءتني رحيل بعد فترة وقالت: ما تشاركيني في تجارتي.

لحظتها استخففت بما قالته، ولكنك كالتاجر الماهر الذي لم يكن يوما من جدودك، أرجأت الأمر وتركت الباب مواربا.. لكي تتأكدي أن ما سمعتيه عن "حليمة عبد الملك" صحيحا، الشابة التي بدأت تجارتها بشراء القطن من الفلاحين في البلاد المجاورة ثم تصنيعه في مصنع تمتلكه ، وسرعان ما أقامت مصنعا ثانيا وثالثا، وأصبحت كما يقولون "ملكة القطن".

فأية مملكة كنت تطمعين؟

الآن أصبح لديك بعض المدخرات.. من مصروف البيت وما يعطيه لك "فؤاد" وكنت تحتاجين لشيء خاص بك، لسر تحتفظين به وحدك، لشيء تخفينه لملك خاص لك.

والموت وما يرويه لك ألم يكن سرا تحتفظين به؟

الموت يصر على قلب الحقائق التي أعرفها ويصدقها الناس من حولي.

من يصدق ما يقوله عن الغراب إذا رآني أستعيذ بالله من مصيبة قادمة عند سماع صوته؟ من يصدق أن الغراب هو رسول الإله وأنه يمتلك قوى

غريبة وقدرة كبيرة على التنبؤ، وأحيانا يتصرف كمرشد أو دليل للإنسان، وأنه يحكي كل ما يسمعه؟! ما يقوله الموت لن يمنعني ، عندما أرى الغراب واقفا على فرع شجرة بالحديقة من الإسراع بتناول سكينتين من المطبخ وضرب إحداهما بالأخرى حتى يتوارى بعيدا.

هذه ليست أسرارا، ما يحكيه الموت لي لا يفرق كثيرا عما تحكيه المسنات اللاتي نسيهن.. لكني أحتاج إلى سر حقيقي.

و"رحيل" هي أمينة سرك، ونقودها تحفظها عندك، ولما ماتت فجأة وجاء أخوتها يطالبون بنقودها، طردتهم من البيت ووزعت نقودها صدقة على روحها. تحول مشروع تجارة الملابس الجاهزة الذي تمويلينه سرا إلى مشغل ثم مصنع صغير تديره "صفية" بعد موت "رحيل".

الأيام تُنمي الأشياء وتُميتها. عندما حكيت لرحيل عن الموت قالت يا ست حُسنة (من رأى ملك الموت عليه السلام مسرورا مات شهيدا، فإن رآه ساخطا مات على غير توبة، ومن رأى كأنه يصارعه فصرعه مات، فإن لم يكن صرعه أشرف على الموت ثم نجاه الله. وقيل من رأى ملك الموت طال عمره.)

هل هذا حديثها أم إنه قول ابن سيرين؟

لكنه بأية حال قول مفيد يمكنك التباهي بمعرفته في جلستك الأسبوعية؟

جلستي الأسبوعية!! كل شيء يفقد طعمه الآن.. كنا ن جتمع، نشرب القهوة، الزنجبيل ، القرفة ، نتبادل الأحاديث .. نميمة ،كذبات صغيرة، تجميل، تعرية، لكنها أحاديث تنفس عن الروح وتمنحها انتعاشا، أحاديث لا يمكن للرجال أن يستمتعوا بها، فتأثيرها وقدرتها على تبديد الكآبة والحزن تكمن في سريتها، النكات البذيئة، الأوصاف المحرمة، تبادل الخبرات، الوصفات، الضحك حتى تغرق العيون بالدموع، ونعود بعد هذه الجلسة مفعمات بالحياة ويصبح كل شيء محتملا وفي أحيان كثيرة جميلا.

تفرقت المجموعة، من مرضت؟ ومن ماتت؟ وبقي سؤال جلستي الأولى عالقاً. ماذا أحكي لهن، هؤلاء السيدات المتطلعات لي بين حاسدة وناقمة ومنقبة بما يجعلها تتعجب وتقول: هذه هي الفلاحة التي تزوجها فؤاد بيه الكاتب!!

تردين عليهن بابتسامة غائمة. إذا سألتني ما الذي تحبينه في نفسك؟ سأقول ابتسامتي التي أنقذتني في كثير من الأحوال وحيرت من يراها وأعطت انطباعا بالرضا والسعادة

ما الذي يمكن لي أن أحكي عنه؟ جذوري.. لا أعرف إلى أين تمتد بل ويبدو لي أنها جذور ضعيفة تطفو على سطح مجرى مائي ضحل، لا أعرف شيئا عن جدي، ويبدو أبي دائما وحيدا دون عزوة أو أصدقاء،

يؤدي مهامه ثم يتخذ  مكانه على طرف المجلس، ليرحل دون أن يميزه أحد.

لا شيء في ماضيّ مميز، لا تفاصيل غنية..لا أسرار، ماذا أحكي..

"فؤاد" قليل الكلام عن عائلته، وكان هذا مريحا بالنسبة لي.. أتاح لي فرصة البحث وكان يفاجأ بمعرفتي بعمته "فايزة" وزوجها ويسألني كيف عرفتي؟

– إنت كل أدراجك مفتوحة.

وغير الأدراج المفتوحة، الصور المعلقة على الحائط في السرايا، صور أقارب فؤاد.. رجال بملابس رسمية، بدل سوداء، تزينها نقوش لأوراق نباتات ذهبية، أحذية لامعة مقدمتها رفيعة .. سيدات بجوارب من النايلون سوداء أنيقة، لا تخلو الأصابع من خاتم تلمع فصوصه في سواد الصورة، واليد بها جوانتي أبيض، ابتسامات، اطمئنان، رضا. صورة لفؤاد طفلا بالعقال العربي. ما الذي تغير فيه؟ صورة لوالد فؤاد وبصحبته ثلاثة أطفال، الوالد يستند إلى الكرسي الذي تجلس عليه طفلة جميلة بشعرها اللامع القصير الذي ينسدل على جبهتها، وفستانها الفاتح يرتفع عن ركبتيها، و"فؤاد" يضع يده حول كتفها، وهو يرتدي جاكت من الصوف، وتحته شورت من نفس القماش واللون. ولما سألته عنها قال إنها "حياة" ابنة عمه.

– أين هي؟

– ماتت.

صورة زفاف والديه: والده ببدلة سموكنج سوداء وقميص أبيض والبيبيونه البيضاء تتوسط عنقه والطربوش المائل قليلا لليمين يزيد من طوله مقارنة بعروسه التي تقف مرتكزة بجسدها على قدمها اليمنى بينما تحني اليسرى قليلا حتى تحاذي نهاية ذقن العريس ولا تزيد، حذاؤها من الساتان والفستان من التل المشغول بالفضة الذي يتجاوز طوله ركبتها قليلا، والجوانتي الأبيض يمتد إلى ما بعد كوعها، وشعرها القصير تبدو أطرافه من تحت الطرحة التي تمتد بجانبها طويلا على أرضية الصورة.

من الصور يستطيع زوجي أن يقول إنه ابن.. وابن..

بل إن رجلا مغربيا جاء إليه بشجرة نسب يعود جذعها إلى الإمام الحسن وجذرها إلى المصطفى، وطلب منه أن ينضم إلى جمعية النس ل الشريف ورسم الاشتراك خمس جنيهات لتحسين أحوال آل البيت.
أما أنا فمن أكون، حُسنة بنت حسين الفقي ...

حاولت كثيرا إقناع "يحيى" أن يتزوج. لكنه يقول: وبناتي؟

"نور" و"شمس" و"قمر" لسن السبب، لكنه متمسك بحبه لصفية، يحرص عليه أكثر بعد وفاتها، في الأيام القليلة التي يقضيها في البلدة، يبقى

معظم وقته جالسا تحت شجرة الجميز، يقبض على الطمي فيخرج من بين أصابعه مائدة مستديرة بأربعة كراسي، تجلس عليها "صفية" مع بناتها وعلي يمينها يقف زوجها "رزق"، وعلى يسارها يقف هو، وهي لا تسمح لأي منهما بالاقتراب من مائدتها.

والنسوة يقطعن تهامسهن حين أنضم إليهن.. ما الذي يجبرني على إبقاء هذا اللقاء الأسبوعي العقيم.

تغفو قليلا وتفتح عينيك، وهم مازالوا يتحدثون، تهز رأسك مبتسما ببلاهة طفل وأنت لا تفهم ما يقولون، ويصبح ما بينك وبين من يجلسون معك فقط ما تشعر به تجاههم، تحبهم، تكرههم، لا ما تراه منهم.

جلستي الأسبوعية، ماذا يتبقى منها غير أحاديث تافهة. لكنها العادة، الرغبة في معرفة ما يدور حولي. تتلاشى أصوات الرجال وتبقى إحداهن تحكي في أذني:

يلومونني على محاولة التخلص من الجنين، ماذا كان بيني وبينه، غير القرف والنزيف والوجع، لا يقو م من فوقي إلا ليأكل، مستعجل يريد الولد الذي يزيد عائلة "النحال"، وأنا بقرة للعشار، والفحل لا يترك البقرة، والسؤال في العيون، يوم بيوم تتابعني الداية. كرهت نفسي، بطني، "محمود" زوجي وكل الذي من رائحته...مثلي مثل أية واحدة، نقى واختار الأحسن بالنسبة له، جميلة، مطاوعة وأهم شرط قوية تقدر تشيل، وكله من أجل ضمان

الخلف. وفجأة أصبحت صحته في النازل. يقولون نَفسي كان وحش عليه، وأنا ؟ماذا أخذت من نفسه؟ ولد حرموني منه، وميراث رفضوا حصولي عليه، حتى ما أخذته بالمحاكم كان مصدر طمع لمن يرغب في الزواج مني. محاولات الإجهاض، الولادة المتعثرة بعد وفاة "محمود"، أراحتني من عبء طفل جديد، لكن عوض لا يعرف كل هذا كل ما يعرفه أني تركته، الخيار لم يكن لي، جدته صاحت:

– عايزين ابننا بس.

– وأنا ؟

– مكان ما كنتي، بيت أبوك أولي بك، ابعدوا عني وجه الشؤم.

هل كنت أصدق وأنا أستمع إليها أن "عوض" سيصبح يوما الرجل الوحيد الذي يسكن بيتي؟! يحتل مكتب "فؤاد" ويملأه بالثعالب والذئاب المحنطة، وفي الصباح يدخل حجرتي وفي يده أوراق يطلب التوقيع عليها وحينما أنظر لراوية تفر مني عيناها.

حميمية صوتها وأساه ترجعني لصوت داخلي: السجاد لو اتسخ ننظفه، المشكلة أن فيه حاجات أهم لو اتسخت مش ممكن تنظيفها.

وتشير إلى قلبها .. "الياصابات" الراحة في ظل شجرة كافور بجوارها زير به ماء بارد، لمسة قدمي المتعبتين لبلاط مندى، وخدر راحة يشملك من أصبعك الصغير إلى منبت الشعر في رأسك.

تنتظرني في الفراندة يوم السوق أضع "السبت" أمام الباب المؤدي إلى الصالة، خوفا من توسيخ السجادة، فترفع يد "السبت" وتشير أن أرفع اليد الثانية:

– السجاد لو اتسخ ننظفه، المشكلة أن فيه حاجات أهم لو اتسخت مش ممكن تنظيفها.

المرة الأولى التي أسمع منها كلمة مشكلة فقد كان لديها حل لكل الأمور حتى ليتبدى لمن يعرفها أنه لا توجد لديها مشكلة، أو أنها لا تعرف معنى هذه الكلمة.

وعندما طلب فؤاد يدي، كانت مشورتها أول ما فعلت، وكان رأيها: فرصه هايله، حكاية السندريلا بتتكرر، أحيانا.

أفاقتني كلماتها على الحقيقة التي تغافلتها، السور العالي الذي يفصل بيني وبين فؤاد، المساحات الشاسعة التي تفصل السرايا وفدادينها الأربعة عن بيتنا القابع بعيدا حارسا للمقابر.

وماذا عن مجلاتها التي تحكي عن ملك الإنجليز الذي تنازل عن عرشه من أجل حبيبته المطلقة، وملك المصريين الذي سيتزوج للمرة الثانية من الشعب.

– الجواز مش فسحه.

لكن شيئا لم يكن ليثنيك عن رغبتك.

هي أيضا لم تكن تحاول، كل ما في الأمر أنها كعادتها تنير لي ما حولي كي أراه جيدا. ساعدتني في اختيار ما أحتاجه كعروس وقررنا السفر إلى "المنصورة". "المنصورة" كانت حلما وكنت أسمع عن "سوق الخواجات" الذي يباع فيه كل شيء فاقترحت مندفعة:

– نروح سوق الخواجات، سنيه بنت العمده اشترت شوارها من هناك.

– عمده! انسي حاجات الفلاحين، شوارك هيكون من أحسن المحلات في السكه الجديده.

ولم يكن ذلك آخر الأشياء التي كان علىَّ نسيانها، فقط كان أول القائمة. وهناك، ونحن نسير على البحر أشارت إلى عمارة عليها لافتة كبيرة في السطر الأول رضوان بك الكاتب وفي الثاني وبخط أصغر قليلا "محامي بالمحاكم الشرعية والمختلط".

– ده مكتب المرحوم حماكي، ومن يوم وفاته مقفول. خسارة. لو فؤاد بك يشغله.

احتفظت بملاحظتها بالقرب من أذني، أتحين الوقت المناسب كي أطرحها على"فؤاد".

وأنا مستغرقة في أفكاري طلبت هي من السائق:

– شارع الشريف الرضي في توريل يا أسطي!

وبالقطع لم أكن أعرف ما هو "توريل"؟ وأمام البيت رقم سبعة وقف السائق، صعدنا إلى الطابق الثالث، وأمام أحد بابين وقفت وأخرجت من حقيبتها مفتاحا ودخلنا البيت، هتفت فرحة كطفلة تستعرض فستانها يوم العيد، لكنها كانت تستعرض اتساع شقتها ونوافذها الواسعة التي ترى من جانبها النيل.

– إيه رأيك؟

– هتسيبي البلد؟

ويبدو أن نبرة صوتي كانت تحمل من العتاب أكثر مما تحمل من التساؤل، فجلست في أقرب ركن ويدها على فمها:

– تعبت. سارة نفسها تعبت، وأنا مش زوجة نبي.

- هشوفك تاني؟

- طبعا هازورك وتزوريني، والسواق ممكن يوصلك.

نقلت "الياصابات" عفشها وساعدتها في تجهيز أغراضها وعندما هممت بربط ماكينة الخياطة اعترضت:

- دى هسيبها لك.

بعد زواجي لم أر "الياصابات" حتى كان مولد ابني الأول، وكنت أطمئن عليها خلال متابعة حملي مع زوجها الدكتور "ناجي". زارتني يوم "السبوع"، وأحضرت معها أبريقا كبيرا مزركشا.

سألتني كيف حال ماكينة الخياطة؟

- في عيني.

- بتستعمليها؟

- مفيش وقت.

- كل شيء له أوان.

وجاء الوقت الذي أصبح لي حجرة تخصني، حجرة فسيحة، تتمدد لتسع السحب البيضاء والغزلان والمراجيح وصور لابنة حبيبة التي أنتظرها.

❖

# الفصل الرابع

ساعة الغروب و"حُسنة " تكنس البيت و تلم الدجاجات ، تصعد إلى سطح البيت، و بين ذراعيها كومة من كيزان الذرة ، تتطلع من النافذة , تقف على البسطة ..المقابر

أمامها مباشرة ممتدة إلى مالا نهاية واسعة سعة أعمار الذين يقطنونها وحيواتهم.

كان بيتهم البيت الوحيد الذي يطل على المقابر، يفصل بينه وبين باقي بيوت البلدة مساحة واسعة من الأرض المزروعة طوال العام بالأرز والذرة والقمح، ولا يربطهم بالبلدة سوى طريق ضيق لا يزيد عن مترين، يسير عليه من يود زيارة المقابر.

هناك في الجهة الشمالية الغربية للبلدة تقع المقابر، لا تبتعد كثيرا عن مجرى النهر، الذي يسير بمحاذاة السرايا الكبيرة. تتراص القبور بجوار بعضها البعض تاركة مسافات ضيقة متوازية للمرور بينها، وهذه الطرقات مأوى للكلاب والثعالب والذئاب ويتردد عليها من يهوى صيد هذه الحيوانات، فينصب فخاخه بجوار عين القبر، ومنهم "عوض" زوج "راوية". تتأمل "حُسنة" قبابها الدائرية غير المكتملة وشواهدها الاسطوانية، التي تنتهي بعمة للعيون المخصصة لدفن الرجال، وبمثلث للعيون المخصصة للنساء.

لم تشعر أبدا بالرهبة من صمتها ، بل كانت تراها عالماً آخراً، ولم يرسخ في ذهنها رغم محاولات أبيها المستمرة إقناعها أنهم تحولوا إلى تراب، وأن هذه المقابر فارغة إلا من عظام. بل إنها في أحيان كثيرة تقيم روابط وعلاقات

بين من ماتوا ، فتزوجهم ببعض ، تتخيل قصص حب بينهم وكنت أصدقها، بينما يندهش أبوها من معرفتها، فعندما قالت إن جمال أبو إسماعيل لا يشعر بالراحة ، وإن روحه لا تستقر في التربة التي دفن فيها، وإنها دائما ما تحوم حول مقابر عائلة البكري ، نظر إليها باستغراب، ولما همت بأن تسأله، وضع يده على فمها ، ونهرها بشدة أن تقول مثل هذه التخاريف ، وهددها: إ ن من يتحدث عن الميتين يذهب إل ى النار، وعندما تأكد من نوم حسنة وأخيها يحيى، همس لأمها:

- مين قال لحَسنه حكاية جمال وعايده بنت البكري؟

تنظر حُسنة إلى الأراضي الخضراء الممتدة على مرم ى البصر، تفكر في الحياة الظاهرة والحياة التي تموج بها القبور، تستشعر أنفاس الراحلين، واستعدادهم للقيام بجولاتهم الليلية للاطمئنان على أقاربهم، وتستشعر القلقلة التي تسري في الهواء، في اللحظات التي تختلط فيها الأنفاس التعبة للفلاحين العائدين من حقولهم، والأنفاس المستيقظة من غفوتها النهارية.

وبينما عيناها تمسح كل الألوان والأشكال التي أمامها، يتوقف نظرها عند نقطة سوداء ، ولما بدأت تتفحصها، وتدرك لمن هي، أخذت حرارة تسري في بدنها ، وتنتقل إلى ذراعيها، فظنت كيزان الذرة التي تحملها أ ن موعد

تحميصها قد آن ، فأخذت تتملص من أسرها، وانفلتت على الأرض ، بعضها تكسر ضلعه وآخر ون تهشمت رقابهم ، والقليل لم يص ابوا، وتكوموا في انتظار مصير آخر، تحت قدمي "حُسنة " التي صدمتها مقدمة قطار ، وظلت مصلوبة على واجهته، يتحرك بها القطار من محطة إلى أخرى دون أن ترمش... ما الذي جاء به في هذا الوقت؟ هو لا يزور المقابر، يكتفي بالشهرية التي يرسلها لأبيها كي يعتني بأرواح أقاربه، بينما يعطيهم دائما ظهره.تتأمله.. شعره هو أوضح ما فيه بلونه الأسود الذي لا تتوه لمعته في غيمة الضباب الرمادي الذي يرش نطفه الآن على الدنيا، فتتكاثر بمرور الساعات سوادا حالكا، ينيره القمر من مداراته البعيدة.

على مدار الشهر تتابع "حُسنة" القمر، ينمو ويكبر ثم يتناقص ويضمحل، تتطلع إلى وجهه فترى وجه أرنب يحمل دلوين على كتفيه كي يروي جزراته، يتربص به ثعلب ينقض عليه، ويقتلع الجزرات من منبتها، يقذفها في وجه امرأة تحمل طفلها على ظهرها ، المرأة منهكة، متعبة، جائعة، تطارد رغيف خبز لا تطوله يدها.

يتردد إلى سمع حُسنة عواء ابن آوي، تدرك أنه يأتي من قلب الحقول، تستبشر وتردد: اللهم اجعله خير . يلفت انتباهها طائر يحوم حول المقابر، يحط على إحداها،

يتحول إلى امرأة راحت تبكي على القبر فترة طويلة حتى غلبها النوم، وهي تنعق:

- وا ولداه، وا ولداه!

فيتملكها القلق، و لاشيء يقلقها في هذه الناحية أكثر من الليالي التي يكتمل فيها القمر، مطلا بوجهه الضاحك على هذه المقابر التي لا تدري ما الذي يفعله السيد فيها. رفع رأسه ، رآها، يدها تسند ذقنها وعيناها لا تسقطان عنه, كانا وحدهما ومعهما الصمت والسكون ، لتبقى هذه هي الصورة التي تراود خيال "فؤاد الكاتب "، حتى وأنا أتلقى منه روحه ، وهو يسلمها لي بأريحية . تمحي هذه الصورة كثيرا من شكوكه ، وتؤانسه في كل ما يتبقى له من أيام، ويظل يصف اللحظة التي رفع فيها بصره ورآها ، بأنها اللحظة التي أطالت العمر وأحيت الروح، لحظة تجمع فيها الحزن والوجع فإذا بحضورها الأقوى والأعمق تأثيرا ينحت لها في روحه مكانا له عمق الأسرار واتساع الفضاء. كان "فؤاد الكاتب" رجلا رومانسيا رغم خطوط وجهه الحادة، ويمكن في مثل هذه الأجواء أن تقع له حوادث لا شك أنكم ستعجبون لها، لكنها المقابر والقمر المطل عليها وحورياته التي تنزل لتؤانس أرواح الموتى وتصوب لقلوب الأحياء سهاما من أشعة القمر. فلا تشفى من الحب أبدا . فلا تقربوها ليلا

وقلبوكم في جنوبكم، وإذا لم يكن بد فسيحدث لكم ما حدث لحُسنة، إذ نزلت السلالم مسحورة, وفي يديها قلة ماء، اقتربت منه، راعها الحزن الذي يأكل وجهه, دون أن تتحدث مدت يدها، رأت قلبه في يده يحفر له بجوار الورود البلدية والصبار، مدت يدها أمسكت بالقلب كان به بقية من حياة، نبضه يُحس ولا يُسمع ، وتجمعات دم متجلط في شريانه تعيق تنفسه، خلعت طرحتها الحريرية لفته بها وأخذت تربت عليه، رفعت بصرها إل ى "فؤاد الكاتب"

- بتعمل ايه؟
- أدفنه.
- ليه؟
- الدم الفاسد مالوه، ومش محتاجه.
- ممكن أرجعه للحياه.
- ده فسد منذ زمن.
- وإذا نجحت؟
- احتفظي به لنفسك.

تركها ومضى وقلبه بين يدها مختنقاً، أخذت تربت على القلب الذي يذوي بين يديها ، تتحسسه ، وبكل حواسها تلمسه وتضغط على الكتل السوداء المتخثرة من الدم ، بيدها اليمنى تعطيه من طاقتها، وتحفز فيه الحياة التي

تتماوت. بعد فترة وتحت تأثير حرارة يديها ، اندفعت قطعة سوداء لزجة، فبدأت تربت عليه بيدها اليسرى. بدأ نبض القلب يزداد ، غسلته بالماء المعطر بالنعناع ، وظلت تحكي له حكاياتها، لياليي وهي تحكي عن هواها الذي لا تدري له مآل، والقلب يستجيب لها حتى أنه بكى بين يديها ، لم يستطع القلب أن يبادلها الحكايات لكنه بادلها الدموع ، وكلما انهمرت دموعه ، اندفعت الكتل المتخثرة التي تميته، ومن شدة البكاء والنهنهة اندفعت أكبر كتلة من الدم الأسود ، واسترد القلب عافيته، وبعد أسبوع بقيت قطعة صغيرة محشورة بين الأورطي والأذين الأيمن ، ولما رأت "البيه " أمام صبارته ووردته التي سبق لها أن روتهما مرتين ، مدت له يدها بقلبه ، رفض:

– قلت لك مش عايزه.

حاولت إقناعه: ده قلب جديد.

تردد البيه لم يصدق أن فلاحة صغيرة يمكنها أن تتعامل مع القلوب . تحسس قلبه المعطر بالنعناع الأخضر وشكرها، وأخرج من حافظته كي يكافئها وقبل أن يقول هذه مكافأة لك، فوجئ بقلبه ينقبض، فظنه يتوجع من البرد، فأسرع ووضعه في مكانه بين الرئتين ومائلا قليلا للرئة اليسرى, ولم يلاحظ البيه أن بصمات حسنة كانت

قد تركت آثارها على جدرانه الخارجية ، ولما وصل قلبه إلى القصر محاطا بقفصه الصدري، تنبه القلب إلى حالة اليتم التي صار عليها، فأخذ يرفس ويحرن ويصرخ مما أفزع البيه وجعله يخرج كي يتنفس قليلا.

كل ما يحدث للبيه الآن لم يكن جزءا من حساباته ، في البدء كان قلبه مريض ا يؤلمه ، الآن يعاني من نشاطه الزائد واضطرابه. ولأن الرجال دائما ما يفسرون الأمور على نحو خاط ئ، فقد اعتقد أن هذا الاضطراب مفاده رغباته وأعضائه السفلية ، فاستدع ى السائق و أمر ه بتجهيز العربة، وسافر إلى القاهرة ليقابل إحدى صديقاته. لكن الأمر كان أسو أ مما يتصور ، وفشل فشلا ذريعا ، سيكون على مائة رجل من "آل الكاتب " أن يستعرضوا أطوال أعضائهم ، وقدر اتهم الجنسية في قلب ميدان التحرير، حتى تمح ى الوصمة التي لطخت العائلة ، ونشرتها مجرد مغنية دون أي درجة، لكنها خبيرة في أنواع الرجال بما يجعلها مرجعية في تقديرهم وتثمينهم في هذا المضمار، وليس هذا بالشيء النادر ف دائما في كل العائلات تجد من يلطخ اسمها بشيء من العار ، وهذه أشياء لا تدون سو ى في التاريخ السري للعائلات الذي تحفظه المومسات والعاهرات الحاملات للخطيئة.

أراد البيه أن ينسى نكبته، فتذكر وجه الفلاحة التي طبعت بصماتها على جدران قلبه، وكان عليه لكي تدخل قلبه، أن يفتح لها البوابة لكنه كان مترددا، ولما أعيته الحيلة تذكر واجبه نحو أسلافه فاعتزم أن يزورهم، ويروي ورداته وصباراته ، وعندما مد يده ليسلم عليها، وضمت يدها يده، كادت تصرخ، احتوت كفها الصغير يد دافئة حانية كرحم أم ، غاصت في أعماقه ا وفي نسيجها ، وستظل هذه الكف مأوى "حُسنة الفقي " الذي لن يطردها أبدا، سيظل سكنها وسكناها في خطوط هذا الكف، يحقق رؤاه ا ويفسر أحلامها، رغم أن "البيه" لم يكن ينوي ذلك، لكنها الحياة أو الرواية التي ستجعلها بعد أيام في طريقها لبيتها الجديد، تصحبها قلة من النساء ، وأبوها إلى جانبها وزوجها على الجانب الآخر .. ترقب البيت الكبير معزولا في حديقته الواسعة التي تقارب الفدادين الأربعة يحاصره سور من الحديد في الخارج، وفي الداخل تحيط به أشجار الكافور والنخيل والصفصاف، كالربات تحميه من عيون الآخرين، ولا يبدو من السرايا سوى ما تظهره الأشجار التي تتباعد فروعها في بعض الأنحاء، يحمل البيت لونا طوبيا من حجارته، وبابه الكبير لونه بني وكل شبابيكه المستطيلة لها نفس اللون.

عالم جديد تقبل عليه، لكنها ترزح تحت عبء، سنوات طويلة، ومليئة بأنفاس ساكنيها منذ بناها جد "فؤاد"... يتعطل قطار الدلتا، والخديوي في طريقه إلى احتفالات افتتاح القناة، تجمع الأهالي حول أفندينا، الذي أراد أن يحرك ساقيه قليلا فنزل من القطار، ويتقدم منه شاب قوي البنيان، لا يكف عن منافسة أقرانه في السباحة في النيل، ولا ينافسه في تعلم القراءة والكتابة سوى فتى خجول، خطه جميل وأسلوبه ساحر، لكن خجله يجعله يرافق زميله كظله، تقدم الفتى الجسور من مولانا وبعد أن انحنى انحناءة خفيفة مؤدبة، فيها من التقدير والإكبار أكثر من الخضوع والخنوع، تكلم عن أحوال الفلاحين السيئة، وثقل الضرائب، وتقدم بعريضة يطالب فيها الفلاحون بنيل العطف السامي، ورفع يد الجابي عنهم، تكلم عن الجميع، بينما كان رفيقه الذي كتب العريضة، ونمقها بما يليق بالخطابات التي توجه إلى أرباب النعم، واقفا بعيدا في الخلفية.أعجب الخديوي بطلاقة الفتى الجسور، فأخذه معه إلى المحروسة، وهناك تعلم القانون وسافر إلى باريس. انقطعت أخباره لكنه عاد بعد ثورة عرابي بك كبير، وبني هذه السرايا، وبقيت حياته بين القاهرة و"الخديوية" الاسم الذي تحمله البلدة حتى الآن، وتوارث أولاده لقب "الكاتب" بينما اكتفت عائلة الصديق القديم بلقب "الفقي".

لا تستطيع "حُسنة" أن تقول إنها فرحة، كان كل ما تبغيه أن يحبها، لا.لا. حتى هذا كثير، مجرد أن يشعر بوجودها، هل كانت تحلم وهي تجمع القطن ولا تفارقها صورته على حصانه بعيدا.. بعيدا على حدود الأرض الشرقية أن يلتفت يوما إليها؟

لا.. من كان يصدق أن البنت الصغيرة التي لا تعرف من الحياة غير أيامها المتكررة يمكن أن تحب؟ وتحب من ؟ السيد النائي هناك على صهوة حصانه ، أو في شرفة بيته الكبير.

كانت تلتقط رائحته قبل قدومه ، فتضطرب روحها ، ويتصاعد الدم إلى وجنتيها وأذنيها، ترتعش أصابعها ما إن يصهل حصانه ، تتبع ظله المفروش على الأرض ، المنسوج من أعصابها والمغروس في روحها، الباسط سطوته على كيانها.

هل تقول لنفسها أن تعقل، لم يكن هناك مكان للعقل.

منذ متى وهي ترقبه حتى أنها حفظت ملامحه وعرفت كدره، فرحه، سنوات وسنوات، هي نفسها لا تستطيع أن تبوح له بما كان منها دون أن يدري ، الحكايات التي قصتها عليه، الضحكات التي اختزنتها له، أي سحر كان يربطها به فلا تبارحها صورته، وأي مطمع كانت تريد، لا

شيء. بل إنها كانت تمعن في الابتعاد عن طريقه ، فلا ترفع رأسها عن نباتات البطاطس إذا تصادف ومر من جوارها.

يا أيها السيد البعيد في عليائه لا تشعر بواحدة من رعاياك الكثر ، من هي إلى جانب اللاتي يتمحكن بالوقوف إلى جواره، لعل واحدة تفوز بالعمل في البيت الكبير تنظر إليهن، جميلات وعفيات، فتهز رأسها.

وسيظل دائما لدى "حُسنة الفقي" هاجس أنها استولت على حظ امرأة أخرى، وستظل تتساءل ترى من هذه المرأة؟ ويراودها شعور بأنها أخذت كل الحظوظ الحسنة لبنات سنها، وأن الذي يوزع الحظوظ لم ير غيرها ، لذا ستبقى تبتسم حينما يخبرها أحد عن شيء حسن حدث لها، أو ينقل إليها نبأ طيبا وتردد : كله على الله، ده حظ مش أكتر.

وإن كان تكرار الحظ يجعلها تتساءل ما الذي بها أعجب المرأة التي توزع الأقسام ؟ لكنها تعود وتتذكر أنها مغمضة العينين. و"فؤاد" الكاتب هو الشخص المناسب، في المكان المناسب، بما يجعلك تؤمن أن ما يحدث في الحياة ليس عبثا، أو ألعاب مؤلفين يستهويهم قانون الصدفة، فالرجل كانت تستكين في نفسه هواجس عن قيمته الحقيقية، ماذا لو انه كان فقيرا هل سيحظي بكل

هذا الاحترام، لا يستطيع أن ينسى جرح بقيتا ندبتهما في الروح.. عندما سمع بأذنيه سخرية الجماعة الشيوعية التي انضم إليها لتحرير البلاد من الاستعمار أيام دراسته في كلية الحقوق .. أحلامه القديمة بالحرية والمساواة، قراءته لأباء القانون: منتسيكو، جان جاك روسو، .. إعجابه الشديد بالثورة الفرنسية ومبادئها ، العدل ، الإخاء ، المساواة ..

لكن سخرية رفاقه أيقظته على حقيقة كونه ابن الطبقة الثرية التي تعمل جماعته ضدها ، وأنهم لم ولن يصدقوه.

– لا طبعا، لا يجب أن يعرف فؤاد كل خططنا، في الأول والآخر هو منهم وليس منّا.

- لكن فؤاد مؤمن بنا ويقوم بكل المطلوب منه.

- يقوم بكل المطلوب منه شيء وأنه يبقي منا شيء ثاني، لن يكون أبدا منا، أنت تربيت في سراي وحولك خدم؟ نقوده هي التي لنا، ونحتاجها لطباعة منشوراتنا.

لم يكن يحتاج لأكثر من هذا الحديث ليعود أدراجه إلي البلد، ليبقى فيها يراعي مصالحه، ويحاول أن يحسن في أحوال أهل بلدته بالقدر الذي لا يشعر معه أنهم يستغلونه، وكان لا ينفره أكثر من فلاح يتودد إليه لحاجة

يريد قضاءها، لكن "حُسنة" التي هي منهم وتعرفهم ، وتعرف مقدار انكسارهم كانت تتحين الوقت المناسب لتقول له: ما يقصدش يضايقك، ولكنهم ما يعرفوش غير الطريقة دي في الكلام. هما غلابة وطيبين، علمهم.

لم يكن لدي "فؤاد الكاتب" الوقت ولا القدرة التي تسمح له أن يعلم أحداً، فقد كان بطبعه رجلا مستقيما، بسيطا، قليل الحيلة، تعوزه الوسيلة التي يخرج بها من كل مأزق نفسي، ويفتقد المرونة التي يتلاءم بها مع ال مواقف المتغيرة والمتناقضة، وسيظل هاجسه الذي يتلو ى في صدره، ويبخ سمومه في روحه، هو أنه بلا قيمة حقيقية ، وأن ماله هو المبرر الوحيد لوجوده.

وحدها "حسنة الفقي " كانت تعرف روحه وسماحته ، وتنبهه إذا ما لمحت قطرات الكدر تتجمع في جبهته ، وتفرقها بتدليلها له ومحبتها ، قبل أن تتكاثف السحب ، وتهطل أمطارها السوداء معكرة صفو أيامها معه ، وإذا غلبته شياطين هواجسه ، تأمر من في البيت بالسكون وألا يقترب أحد من كبيرهم وتكون في هذه الأوقات الربان الماهر "لآل الكاتب "، حتى تسترد روح زوجها ، والرجل الوحيد الذي أحبت واشتهت في هذا العالم، وكان هو يقدر لها هذا ولا يخجل من نوبات ضعفه ويطلعها عليها.

أثقلت الأيام عليه. وحين تسيطر عليه هواجسه القديمة , فيبدو كرجل يحمل دهرا كاملا لا ستين عاما لن يخجل من أن يسألها ممسكا بيدها، ودون أن يستحلفها أن تقول الصدق:

- لو مكنتش البيه الغني كنت ترضي تتجوزيني؟

فتفهم حسنة مراده وتكتم غيرتها وتواسي ندبة روحه:

- طبعا ولو مكنش حيلتك غير جلبيتك، كانت البنات تتخانق عليك وتسحر لك كمان, كفاية حنانك.

وينسى أن زوجته تغار ويفتح روحه لصديق لا تنتهي مسامراتهما

- مش كل البنات يا حُسنه.

- كل البنات يا فؤاد.

فيدير وجهه ويخنق صوته السؤال الذي ظلت تخشاه

– طب ليه واحده تختار الشلل ولا تختارني؟

ياه. بعد كل هذا العمر، يتجسد لها هاجسه الذي ظلت تغض البصر عنه، كأنه الباب الذي أوصاها أحدهم بألا تفتحه، وقبل أن تغرق في دوامتها، مد لها حبل نجاة ، وقبّل باطن يديها وهو يتمتم

– حبك داو ى جروحي، لكن اغفري إن لمست ندباتي ،

فتذكرتها.

ولكن لأنه ليس بهذه السهولة تداوى الجراح أو يمنح الغفران. تحكي لي "حُسنة" في أيامها الأخيرة عن ابنة عمه التي تسكن غرفة في الدور الث الث من السرايا ، تقابلتا مرات قليلة، في الأعياد حين تصعد إليها بصحبة فؤاد لتهنئتها بالعيد، تتبادلان كلمات مجاملة مقتضبة، وشجعها على ذلك ولم يثر غيرتها أو شكوكها لا مبالاة فؤاد بها وتعامله معها على أنها أحد مسئوليات كبير آل الكاتب. وعندما همت حياة بالنزول بكرسيها المتحرك، بمساعدة دادة وهيبة لتودع "فؤاد"، كانت "حُسنة" هناك على رأس البسطة، تبادلها نظرات وحديثا صامتا، أدركت منه "حياة الكاتب" ألا وجود لها إلى جوار المحتضر ، وأن مكانها الوحيد هو حجرتها، وربما فقط سريرها أو كرسيها داخل تلك الغرفة.

هذا ما ترويه حُسنة، لكن من يصدق امرأة تصادق الموت؟

❖

# الفصل الخامس

غسلته كما علمتني يا أبي.. سخنت الماء إلى الدرجة التي يحبها ويتحملها جسده، تحسستها كما كنت أتحسسها وأنا أملأ البانيو لحمامه الأسبوعي بعد الحلاقة، فتأكدت أنها فاترة وكنت واثقة من طهري فلا حيض بعدد انقطاع الدورة الشهرية لوقت طويل.

أحضرت الماء الدافئ، لينت أطرافه، مسدتها، استخدمت ليفته. بدأت برأسه ثم وجهه ويديه ثم جنبه الأيمن ثم الأيسر وقدميه: اليمنى فاليسرى، ثم غسلت الجسد كله بالماء، ولم أنس أن أضغط على بطنه، لكن "فؤاد" كان قد عاف الطعام قبل وفاته، أردد وأنا أغسل الذراع اليمنى، اللهم أعطه كتابه بيمينه وحاسبه حسابا يسيرا، عند غسل اليسرى، اللهم يسر ولا تعسر، اللهم حرم شعره وجسده كله على النار، اللهم ثبت قدميه على صراطك المستقيم.

كم من الوقت مضى قبل أن يخلع ملابسه أمامي؟

يدخل الحمام بملابسه كاملة، لا يخلع سوى الروب، يضعه على الكرسي المجاور لباب الحمام.. وجود حمام في نفس غرفة النوم كان أول ما أثار انتباهي في البيت الكبير، البنت التي أعرفها تقضي حاجتها في الخلاء، بيوت المتيسرين هي التي تحوي الكنيف، والماء القليل يجعل له رائحته الخاصة، وهي رائحة بكل الأحوال لا تغري بوجود الحمام في البيت، فما بالك بحجرة النوم. لكن حمام السرايا معطر دائما، وما ورد في ذهن البنت التي أعرفها حين دخلته للمرة الأولي: إنه أحسن من حجرة الضيوف عند العمدة.

يأخذ حمامه من الدش، يراقبني وأنا أحاول النفاذ إليه والاقتراب مما تحت الجلد. مرات كثيرة ولا يكتمل اكتشافي له، المرة الوحيدة عندما غسلته. جسده مستسلم لدفء أصابعي أملأ كفي بزيت الورد، يتلألأ الزيت الذهبي بابتسامات عشرات العذارى، من أجلك يجمعن الورد الهندي والدمشقي والجوري، قبل شروق الشمس، تنقع البتلات وتقدمه لي الصبايا، ادهن به جسمك.

أجهز ثوبك الأخير، أعطره بكل العطور التي تحب وبنفس ترتيب استخدامك لها طوال اليوم.

القميص الأول رداء طويل من الكتان، ليست به أية تفصيلات، يناسبه عطر يحتوي على الياسمين كي يكون صباحك منتعشا ونشطا.

يليه الدرج الأول من قماش أبيض يشبه الشاش، عطر" سيمار" يعطيك الإحساس بالأمان في رحلتك الطويلة .

ثم الدرج الثاني من قماش الدبلان الأبيض. وسط النهار، بعد الظهر تستخدم عادة عطر "الأورنجا"

أضيف الدرج الثالث: القطنية. عطر"كوول واتر" للحظات الصفا والسكينة. والدرج الرابع والأخير من الكشمير.ما ستواجه به الآخرين، دائما ما كنت تبدو لي شامخا، عظيما، مسيطرا وستؤكد ذلك مع عطرك المفضل "يانجان".

وسأكتفي أنا بزهرة التمر حنة في يدي.

من بين ملابسي، أخرج قماشة بيضاء، بها حبيبات ناعمة ملساء، لونها أحمر داكن، أشعلها، فيحترق المسك الذي ادخرته لهذا اليوم، وتتصاعد رائحة نفاذة مع لهب أبيض، يظل يتراقص أمام عيني، وتنفذ رائحته إلى خياشيمي وتسكن هناك، أستدعيها كي تعيد أمني وتهدهد روحي. في المبخرة تتفحم قطعة المسك، ما تبقى منها في يدي حبات فحم إسفنجي وملمسه الرملي يتفتت بين أصابعي ويتلاشى كما تلاشت روحك، دون أمل في استرجاعها..هل لي أن أحاول ؟..أتمدد على جسدك، دافئا كما كنت دائما، أضغط عليك بجسدي، أستحث خلاياك أن تتحرر من أغلالها الدائرية، أرتفع قليلا قليلا، أعود مرة أخرى أضغط ثانية، أتوسل أن تحطم

روحك قيود الموت وتهرب من سلاسله، أرتفع قليلا قليلا، أعود ثالثة أبتهل أن تعود روحك من خلالي، وتصحو من نومك، لكنه يراوغني .. يقترب موعد صلاة الجمعة، ينهض من سريره، يجلس بين يدي الحلاق. أتأمل صورته التي أعطاها لي حديثا ووضعتها في إطار فضي على الكومودينو المجاور لناحيتي من السرير.. صورة التقطتها عدسة المصور فور تخرجه من كلية الحقوق، ثبتت هذه الصورة في ذهني، أنظر إليها فأشعر أنها لابن ذاهب إلى "الجهادية" وسوف يعود. نادرا ما أتذكر صورته الأخيرة وشعره الأشيب يجلل رأسه، شعره الذي لم ينحسر عن جبهته سنتيمترا واحدا، شعره التام الكامل يبعث الثقة وسوالفه التي ستتغير ظهورا واختفاءً بناءً على نصيحة الأسطى على الحلاق الذي يزوره كل جمعة قبل الصلاة.

سينادي الآن بصوته الآمر:

– الحمام جاهز يا فاطمة؟

لا. لقد تغيرت الصيغة ونبرة الصوت. فعامان كاملان يكفيان لأصبح ماهرة في التقاط حركة شفتيه وهو يهمس برقة أثيرية ومحبة: الحمام جاهز.

يجدني على رأس السلم فور انتهاء الحلاقة وهو ممسك بالكرة الحديدية التي تزين مقدمة الدرابزين الخشبي وإحدى ساقيه على أول السلمة والثانية

لم ترفع بعد، وبمرح يجعلني أتمنى تأخير صلاة الجمعة للأبد. فأهز رأسي:

– طبعا.

وأخطو في الممر الطويل المؤدي إلى غرفة النوم، وقبل أن أفتح باب حجرتنا يكون قد لحق بي، فيضمني من الخلف، وألتفت إليه لأقبل رقبته، تصعد شفتي إلى ذقنه ثم أحك خدي بخده:

– إيه أخبار الحلاقة؟

– حرير.

ويفك لي حزام الروب الساتان ...

بعدها بسنوات طويلة قالت لي ابنتي:

– لا يجوز. بمجرد موته أصبح غريبا.

أشتاق إليك فلماذا لا تأتيني, أحمم حصانك, أتشمم ملابسك، أرتديها, أنام في جلبابك فما الذي يبعدك عني. لدىَّ إحساس دائم أنني لم أعرفك، وأنت أيضا لم تعرفني.

ما الذي ينقصنا لتكتمل علاقتنا ؟ شيء مراوغ يفلت من يدي، ينزلق ولا يتبقى سوى طيفه ربما تولد في تلك الصباحات البعيدة، في الساعة التي

أجلس فيها لأشرب فنجاناً من الشاي، وفي داخلي أمان وانتظار، عندما انطلق البيان الأول في العاشرة والربع من إذاعة البرنامج العام اتصلت به في المكتب وكان رده مقتضبا: عرفت.

على مدى اليوم لا أمل الاتصال به – فؤاد أسقطنا 22 طائرة، أسقطنا 42 طائرة، لدينا أسير 6,4,2,.....

يتململ صوته: سمعت.

في المساء صفعني على وجهي:

– 86 طائرة !! ليه بيصطادوا حمام! إنت عبيطه؟

عبيطة. هل هذه صورتي لديه؟ بلهاء يمكنها أن تصدق أي شيء، حبه، حمايته إخلاصه. تصدقه وتجلس أمامه في الفصل وهو يكتب عنوان الدرس "ماذا تفعل في الغارة"، تحفظه.. يشير لها، تسمع.. إذا كنت من سكان الأدوار العليا فانزل إلى بدروم المنزل أو الطابق الأول.. ابتعد عن بئر السلم فقد ثبت بالتجربة أنه أكثر الأماكن في المنزل تعرضا للانهيار.. الزم الهدوء التام حتى تسمع صفارة الأمان، إنها تعطي صفيرا متصلا لمدة 45 ثانية.. تأكد من أنك أطفأت جميع أنوار منزلك وساعد رجال الدفاع المدني في إرشاد جيرانك لإطفاء أنوار مساكنهم.. تأكد قبل تركك المسكن إلى المخبأ أو بدروم منزلك أنك أغلقت جميع محابس المياه والغاز...

هل سيتذكر "حياة" ويوصي بإنزالها إلى الدور الأرضي؟ مع كل مرة يفتح فيها فمه، أنتظر أن يقولها:

– حُسنه! اطلبي من الشغالين تجهيز أوضه في الدور التاني لحياة.

لكنه نسيها فنامت كل هواجسي واستمر الدرس.. مدفعية عادية ومدفعية مضادة للطائرات ومعدات ثقيلة وجنود القوات المسلحة المصرية في مطار عمان الحربي، العراق تنضم لاتفاقية الدفاع المشترك، إننا ننتظر المعركة على أحر من الجمر، قواتنا تتوغل داخل إسرائيل، التقدم العربي الجبار، الجزائر، السعودية، العراق، الكويت، الأردن، السودان، سوريا معنا في قلب المعركة .

أصم الدرس، أردده، والنتيجة؟

– 86 طائرة!! ليه بيصطادوا حمام! إنت عبيطه؟

طفلة غريرة، يسخر منها، هذه هي صورتي لديه، عيناه تراني هكذا، وبكل حمق الأطفال أوزع الشربات، وأصب ماء الورد لكل من يمر أمام السرايا , وفي اليوم الثالث عندما سألتني فاطمة:

– يا ستي أبل الشربات؟

نظرتُ للخريطة كانت كما هي، نفس الخريطة لا تتغير، البحر الأحمر، خليج العقبة، فلسطين المحتلة، الجمهورية العربية المتحدة. الخريطة ثابتة وفي نفس المكان وكأنه ليس هناك جديد.

نظرتَ لي باشمئزاز "إنت عبيطه" وأشرت إلي كلمة "لكن" تحت عنوان الجبهة المصرية وعلقت في رقبتها ناقوس

"ولكننا واجهناهم بشجاعة وعناد.. قواتنا المسلحة تدافع وترد الهجمات على مواقعنا في العريش والقسيمة وأبو عجيلة وتكبد العدوان خسائر في العتاد البري والطيران"

قلت لها: استني شويه.

لكنها انتظرت طويلا. وعندما أعلنوا في يوم وأنا أتابع تجهيز طعام الإفطار أننا عبرنا القناة، قررت مقاطعة الراديو، وختم القرآن الكريم فمن يتحمل الخيانة مرتين.

انتهي الدرس ودق الجرس.. بيتك.. بيتك.

كيف أمكن لك أن تتصورني بهذا الشكل؟ ساذجة وعبيطة وغبية وأنا التي صدقتك في كل ما قلت... وللمرة الأولى أرى عينيك التي تحدثوا عنها كثيرا, حزينة والدموع معلقة فيها وقررت الانسحاب وتخليت عني...

بعدها تجنبت الأحاديث والأراء والفرح والضحك مخافة أن تظهر لي الدموع التي تملأ عينيك الواسعتين وتزيد لمعتهما مرة أخرى... تنحدر الدمعة على خده تتلألأ في ظلمة موقعه النائي ، حيث يجلس على طرف الصف الطويل للمعزين بعيدا، حيث لا يصل ضوء الكشافات التي تتمركز حول رأس المقر ئ المتسلطن على مقعده الع الي. تستقر التنهيدة التي أخرجها الأب في صدر البنت الصغيرة التي جاءت تستدعيه لأن صرخات أمها أصبحت تعلو في ان تظار مولوده ا، تسمرت البنت أمام الدمعة المعلقة ، التي تجذبها الأرض بطيئا ، وتعوق مجراها كبرياء رجل طالما انتش ى بكلمات الإعجاب لترتيله، تحسس الرجل حنجرته التي أصابها التهاب لينزل من كرسي المقر ئ وآهات المعجبين بكلام الله إل ى مجرد فقي يلحد المودى، ومقرئ له راتب في كل بيت، يمر على البيوت من السابعة حتى أذان الظهر.

تفر عينا الرجل بعيدا عن الكرسي الذي يصدح "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة..."

البنت التي حرقتها دموع أبيها لا يمكن لها أن تنس ى الوجه المنتفخ المتعالي المتسلطن السارق لمقعد أبيها .. لكنك بقيت في مقعدك.. سأبقى كما أمرني الشعب.

علمت ببقائه عندما وصلتني دقات الكنائس من المنصورة والأذان الذي ارتفع في غير موعده، لكني كنت قد أعطيته ظهري للأبد حتى أنه عندما مات وغلبتني دموعي، لم أسمح لها أن تظهر سوى أمام مرآتي في الحمام وألا يكون لها أثر سوى طرف الكم الأيمن لجلبابي الموهير الذي انتظر به الشتاء.

ماتوا جميعا وبقيت "إنت عبيطه".. سري الصغير، هاجسي الذي أرق أيامي. الإجابة الجاهزة لكل ما تمنيته ولم يتحقق. لم يطلب من مسيو عدنان أن يرسم لك بورتريه ويزين بصورتك مدخل الصالون. "لأنك عبيطه".

أحقا كنت تطمعين في ذلك يا ابن ة الفقي.. فتلتفتين الآن في انتظارك للمرآة، وتتخيلين كيف يكون بورتريهك، وبأية زاوية ستكونين. تعيشين أمام المرآة تختالين بنفسك كلما ارتديت جديدا، وتقولين غدا..وغدا لا يأتي, كم اخترت من أوضاع ؟ ولم تتحقق؟ وبقيت منعكسة على صفحة مرآتك، حية في ذاكرتك تخرج لسانها لك: يا عبيطه.

مع طول عشرتنا لم أكشف لكَ سري.. تماهيت فيك حتى أخذت كل صفاتك، وتعلمت منك صمتك الذي لا يبين عما تخفي دواخلك، روحك وسراديبك ظلت غير مأهولة,

وسأظل أندم طوال أيامي أني لم أسألك صراحة، كنت أردد سأعرفك غدا، وفجأة مت، وتنبهت أن الفرصة مضت ولن تعود وأنني لن أعرفك, ولن تعرفني, رغم جسدك العاري المسجي أمامي، وجراحك التي مازالت مفتوحة، أحاول تطهيرها. سهري بجوارك, لمسات أصابعي على جسدك، ضغطي على يدك وأنت تتألم، ارتعاشات روحك التي شعرت بها. رغم لهفتك، ثقتك، مؤازرتك لي, عبارتك الحاسمة للأولاد.

– ماما هي اللي تختار.

تقولها أنت والابتسامة تملأ وجهك، فتعود الضجة التي جئت من المطبخ على أثرها: سينما التحرير الصيفي يا ماما.. طبعا "السباق العجيب", بلاش الأفلام العربي.. مفيش أحسن من "ناتالي وود" و"جاك ليمون".. لا. "هارب من الزواج" يا ماما.. "سلطان", وحش الشاشة يا ماما..

آخذ منهم الجريدة وأفكر. أنظر إليك.

– يلا يا ماما.

أتوجه إلى التليفون أطلب الرقم 3219

– ألو سينما عدن؟

– .....

من فضلك احجز لنا بنوار لحفلة سته.

– .....

– فؤاد بيه الكاتب وعائلته.

وألتفت لعشاق "نتالي وود": فيه ممثله جديدة اسمها "نادية لطفي"، مجلة الكواكب نشرت صورتها ونفسي أشوفها.

كنت أحتاج إلى إجابة واضحة مثل الشمس أعلقها على صدري.

لكني لم أسأله، كل شيء كان جيدا بل كنت محسودة حتى من نفسي، وهي تردد أمامي كلما حدثتها "أتحفيني بخرافات أيامك الأخيرة، امرأة تافهة تبحث في شقاءات الآخرين وتريد أن تبكي على نفسها".

في أيامك الأخيرة لا أحد يرضى عنك..

تعيد "فاطمة" الطبق لي:

– يا ستي "الرز بلبن" حلو قوي، إنت اللي بقك بقى دلع.

يفيض الأمر بالمسكينة، بعد مرات عديدة، وأنا أضع طبق المهلبية جانبا, وأنزوي على نفسي في غضب.

عبارتها الحادة، وصوتها الذي نفد صبره, لا يعني أن أصدقها.. وليس عليك أنت أيضا أن تصدقها. ماذا يعني أن تمتلك لسانا ناعم الملمس،

وخدودا تجهدك عند مضغ قطعة لحم, بلعوما يتكاسل عن استقبال لقمتك, تتعرض للإمساك بين الحين والأخر..عليك بالإقلال من أكل الموز, وشرب القليل من الخل الذائب في الماء, ستشعر فورا بالراحة.

لكن فاطمة أو أية خادمة غيرها لا يمكنها أن تنكر حالة أسناني الكاملة، أغسلها كل صباح ومساء حتى لا يتهمني "فؤاد" بأنني فلاحة.

– ياستي "الرز بلبن" حلو قوي إنت اللي بقك بقى دلع.

جيد أن يكون فمي دلعا وليس مُرًّا..عالمي كما هو لم يتغير, والبيوت التي ترتفع _دورين أو ثلاثة مازالت كلها بعيدة, لا تقترب من السرايا المغلقة أبوابها. حتى عندما دخل عليك الرجل الذي لا يرفع عيناه في عينيك أبدا، مصطحبا صغرى بناته ليقول لك: يا ست. بنتي "نوال" عايزين لها شغل.

– ومالو ياحامد. البيت واسع، تساعد فاطمه.

– لا يا ست. نوال معها الدبلوم.

نظرت إليه. كما هو، كما عهدتيه لم يتغير, وهو يضع في حجرك حبات الجميز أو حفنة من أوراق الجوافة لأمك المصابة بالبرد, ويتلفت حوله قبل أن يخرج من "سيالته" رمانة:

– تغلي قشرها هتروق على طول.

وبمجرد أن يراك مارة أمام السرايا تسيرين بحذر خائفة من الكلاب، ينادي عليك:

– عدي ما تخافيش.

ويسألك عن يحيى:

– بيقولوا شاطر في التعليم .

ويستطرد – البيه إداني أوضه واسعه، ومبلطه، وفيها حوض وحنفيه، وإنت بس اللي هتنوريها.

كان عريسا مناسبا، بل أكثر من مناسب. لكنك رفضتيه عندما تقدم لأبيك لأنه "فشار" وكذاب، أعطاك فردة حلق وادعى أن "أسمهان" كانت ترتديها عندما سقطت بسيارتها في الترعة وهي في طريقها لرأس البر وعندما عرض التلفزيون فيلمها الأخير "غرام وانتقام" وكان الحلق يزين أذنيها ضحكت وقلت:

– الحمار بيفوّل عليَّ.

حجرته!! الآن ترينها حجرة ضيقة، وتتعجب السيدة التي تسكن السرايا، كيف يعيش فيها ولدان وبنتان، وتتماهين مع زوجته، وتتغاضين عن سرقاتها للبيض أو الفراخ.

– حرام هما بيعملوا بيها ايه؟! بياكلوا.

وتسأليه: عايزها تشتغل فين يا حامد؟

– في مشغل الملابس، وأنا طول عمري خدامك.

"طول عمري خدامك"! لكن ابنتي لا.

عليك أن تعترفي.. التغيير أصبح قريبا منك، استقيظت على يده:

– ميعاد الدواء يا مدام.

شابة ترتدي فستانا أبيض، وتلم شعرها بإيشارب من اللون نفسه، تسند ظهرك بمخدة، وحبيبة وراوية أمامك، تدعكان يدك: سلامتك يا ماما: إيه اللي حصل؟ ضغطك ارتفع! لكن هذا أمر طبيعي في سنك.

في سني؟ أي سن؟ الخمسون.. الستون ..السبعون ..

في الخمسين أو بعدها قليلا، تشعرين أنك تتحررين من تبعية جسدك للعالم، تتخففين من نظرات الآخرين، من حصار عيونهم. سيدة خمسينية تبعثين الهيبة والوقار. تتلفتين كما يحلو لك، دون أن تلمز حركاتك، أو تنسب للشيطان.

الآن أنضم إلي عالم الجدات، ولدت حبيبة في نفس العام الذي انقطعت فيه عني الدورة الشهرية.

لا تتصور حبيبة مقدار امتناني لها، وهي تكتب في خطاباتها عن أشياء لا أعرفها، ثقتها تدفعني لأن أبحث, ثقتها في قدرتي على تفهم الاستنساخ، البويضة, تفريغ الخلية. تعتقد أنني أستوعب كل هذه الأشياء الجديدة، تعاملني كشخص بالغ رشيد، ولست مجرد البنت التي لا ينتبه لها أحد..البنت التي تجلس على مصطبة بجوار أمها، تعدد على المتوفين، وأنا ذاهلة، بكائي دائما صامت فمن يسمع لبكاء طفلة هي ابنة المعددة وسط الصراخ والعويل؟ نمى لدىَّ شعور أن حزني دائما أقل من حزن الآخرين، فلتكن بكائياتي صامتة، ويوم ماتت أمي كان بكاء النسوة صامتا دون عويل أو نواح. لم أشعر أنها ماتت إلا حين جاءت قريبة لنا بطبق به بامية، لماذا أكره البامية ؟ كنت جائعة لكنها لم تكن بامية أمي.. قرونها الصغيرة, تسبيكتها، لم تكن بها رائحة أمي, حينها أدركت أنها فعلا رحلت فبكيت. لكنها لم تخذلني، تأتيني في مساءاتي، تشرف على تعليمي شئون البيت، ذاكرتي تستحضرها في كل الأوقات، لم يصدق أحد أن بنت السابعة تستطيع أن تطبخ وتكنس، أفعل كل ما تفعل، شيء واحد لم أقدر عليه، آخذ الرحمة من النساء أيام الخميس والأعياد.

توقظك تكبيرات العيد من ميكرفونات زاعقة تكبر وكأن الله لا يسمع. إن أنكر الأصوات لصوت الحمير قالها الشيخ "عبد الجواد" وهو يهذب صوت

الولد "على". يخنق الصوت الزاعق سكينتك، ويسلب منك فرحة العيد، وزهوة الفستان الجديد، والعيدية المتوقعة، تحاولين النوم، لكن البنت ذات الضفائر المشدودة تجذبك من سريرك، تطوف بك على البيوت المفتوحة، تقودك إلى الوسعاية المجاورة للنيل، فيصطبح وجهك بنسمة باردة، تظل ملاصقة لجلدك، تتغير الألوان، والضباب الخفيف يكسو الخضرة الأبدية الساكنة على حواف النهر، الذي يسير مطمئنا، لا نرجو منه هذا العام فيضانا غامرا, يأمن الرجال النهر بعد التعلية الأخيرة للجسر، ويملأهم فرحة التغلب وبهجة الانتصار، بعد سنوات سيصير النهر وديعا وساكنا أنهكه طول الرحلة عبر آلاف الكيلومترات. تشاهدين رحلته محفورة في خريطة، تحتل صفحة واحدة من كتاب الجغرافيا لعاطف، صفحة واحدة، ومجرد خط طويل متموج لا يستقيم. يأتي النهر في نهاية المشوار مثقلا بأيامه وأسراره، حاملا وجوه وأرواح من مر بهم، والسؤال الذي لا أعرف له إجابة، هل يختلف طعم ماء النهر عند منابعه التي شاهدتها في برنامج "عالم الحيوان" عن مصبه الذي ينتهي إلينا؟ لا أح د يعرف الإجابة، وأحيانا تنقلب الإجابة إلى سؤال لا أفهم مقصده: "من يملك كفا لا يتسرب منه الماء أو يتبخر، فيحمل حفنة من هنا إلى هناك ليقارن على حق".

هكذا تردد ستي آمنة التي يكتمل طعم العيد بزيارتها، بابها دائما مفتوح ندلف إليه في أي وقت، تمنحنا وجها بشوشا وريقا حلوا وسخاء ينبسط أمامنا، أدخل مع الأولاد، نسلم عليها، نقبل يدها المعروقة، أرفع رأسي

وأقبل وجهها، جلدها الطري الندي، تقبلني وتسألني كما عادتها مع الجميع من؟ نظرها الضعيف لا يحدد من نحن، أو ربما هو غبشة الصباح والضوء الخافت، والأكثر احتمالا أنها ملامحنا، التي تتغير من عيد إلى عيد.

– حَسنة بنت حسين الفقي.

تقبلني وتخرج من سيالتها "نكله"، وتمد يدها بالطبق الصاج المملوء بالتوفي والفول السوداني، الطبق من الصاج الأبيض، غويط، في أسفله خرم صغير لا يسقط ما بالطبق لكن الطلاء يتآكل، وعلى الراكية تدفئ الخبز وتمنح كل واحد رغيفا وقطعة جبن، تصنع شايا وتصبه في أكواب تعاملنا كما لو كنا كبارا، أتدفأ بطعم الشاي وأحلم هل سأكون يوما مثلها؟ لكن التجاعيد لما جاءتني، وجاءني الشال الأبيض لم يعد هناك أولاد يسيرون مسافة طويلة، ويخترقون ممر الحديقة. وربما كانت البوابة مغلقة، لا يستطيع أحد اقتحامها و"راوية" تصيح:

– هتلمي العيال عندنا؟ حَسنتهم ياخدوها في الجامع.

فتنكمش البنت ذات الضفائر المشدودة، ويلتسع لسانها مع الرشفة الأولى من كوب الشاي، ويزعق خطيب المسجد الجديد بوصاياه العشر، وأنت تغالبين تحنانك إلى الجرجير والفجل وقطعة خيار طازجة، تمسحينها في جلبابك، وتفركين طينها الندي في يدك، ويختم الشيخ وصاياه بالوصية

الأهم: أيها النساء أنتن معظم أهل النار لا لأنكن تكفرن بالله ولكن لأنكن تكفرن بالعشير قالوا :وما العشير يا مولانا قال: الزوج.

وقبل أن تنهضي وتقبلي يد السيدة مرة ثانية، تمد يدها لك بلفة، تطبطب على كتفك – سلمي لي على أمك.

تعرفين جيدا ما باللفة, تحملينها، تتدلي بها يدك بالقرب من فخذك، لطخة تفسد فستان عيدك، يسرع الأولاد، تتباطئين، وعند أقرب حائط تلقينها من يدك, تنفك الورقة وتظهر وحدات الكعك، تفرين منها لكنها ستظل تطاردك...

بأي عمر نفتدي عقدنا الصغيرة؟

كعك العيد من ضمن أشياء كثيرة لم تكن ببيتنا, كل عائلة ترسل طبقا أو اثنين فتتجمع لدينا أشكال وأنواع عديدة، فهل يمكن للبنت التي كانت أهم سماتها أنها متفهمة، أن تطلب من أمها كعكا له نكهتهم ودقيقهم وسمنهم ونقوشهم ورائحة أمها؟ لم يكن لها أن تتذمر، وهي تعرف أن تكاليفه يمكن أن توفر لأبيها ثمن "كيلة" قمح أو أكثر. وجاء اليوم الذي أصبح لها كعكها, أول عيد يمر بعد زواجها, اشترت كل أنواع النقوش, ولسنوات

طويلة تتفنن في عمله وتحشيه بالملبن والعجمية, كانت أول من قرأت عن "المعمول"، وقدمته لضيفاتها والمهنئات بالعيد، وكل واحدة تسألها عن الوصفة.

تجتمع حولها الشغالات، تتأكد من نظافة ملابسهن, وربطة الرأس البيضاء التي تلم الشعر. تبس العجين بيدها، تشرف على النقوش، ومع السنين تشكل حصانين وأقواسا وأهلة لمنير وعاطف، وعروسة ونجوما لراوية وحبيبة، وحينما يخرج أول صاج من الفرن، متوهجا ومتفتحا، ورائحة السمن البلدي تغلف المكان، وتخبر عن جودته, تطلب من "أم علي" تذوقه، تراقب وجهها:

– بيدوب في البق ياست حسنه. تسلم إيدك.

تهجم البنات على الصاج ....

تجهز طبق الكعك، ترشه بالسكر البودرة، ترفعه إلى فؤاد بينما يرتدي ملابسه استعدادا لقضاء السهرة الرمضانية, تمسك واحدة وتقربها من فمه، فيقبل يدها ويقول: "تسلم يدك". تلاحقه بكعكة ثانية: "علشان خاطري". فيقضم نصفها، وبعد أن ينزل، ويغلق الباب تعطي الطبق لإحدى البنات دون أن تتذوقه.

الحقيقة إنني لم أحب الكعك ولن أحبه.. هل تستريحون إذا قلت لكم إن الكعك عقدة طفولتي وحرماني؟ لا بأس، استريحوا، لكني لن أترككم لهذه الابتسامة الشامتة وسخريتكم... طبعا شبع من بعد جوع. فأنا أمتلك شجاعة الاعتراف بعقدي القديمة وأستطيع أن أحصيها:

1- الكعك.

2- الكلاب السوداء.

3- عيدان الذرة.

فهل تملكون أنتم ذلك؟ سأترك لكم جزءا أبيض، سودوه بعقدكم القديمة هيا:

-1

-2

-3

❖

# الفصل السادس

"لا شيء يفتك أقوى من الحبس والجدران".

واحدة من مقولات عديدة تؤمن بها حُسنة، لكن ليس كل ما يؤمن به المرء يفعله، ففي أحيان كثيرة كان العام يمر دون أن تخرج من بوابة سرايتها، ولكنها وبنفس القدرة على الابتعاد، حرصت على أن تظل صِلاتها بأهالي قريتها مستمرة ، وأن تفتح نوافذ روحها للعالم تتلقى بعضا من نسماته وكثيرا من أعاصيره.

وعندما أخذ شيخ الجامع الكبير يصب لهيب نيرانه وهو يتوعد المارقين والمفسدين في الأرض "الذين يصنعون تماثيل تضاهي خلق الله الشريف ولكنهم خسئوا ولهم سوء المنقلب "، كان على حسنة أن تستدعي مقولة: "أعط اليد يقصر اللسان". فارتدت البالطو الأسود فوق فستانها الأزرق ذي الأزهار الصفراء ، وأحكمت طرحتها البيضاء حول وجهها مما أكسبه استدارة ليست فيه ،

وتأكدت من كثافة شرابها الأسود و بالطبع لم تنس خواتمها وأساورها الذهب ، وحرصت أل ا يزيد ما تض ع ه من عطر العود أكثر من قطرتين ، بما يسمح بتنسم الرائحة الحلوة ولا يثير شيخ الجامع وي جعله يتلوى:

- أستغفر الله، أستغفر الله.

سبقها "حامد" البواب ليتأكد من وجود الشيخ في بيته للقيلولة ، واصطحبت معها خادمتها "فاطمة "، كان بإمكانها أن تستدعي الشيخ إلى السراي ا، لكنها أرادت أن يراها الجميع في سُرة داره، وقبل أن تلتقط كوب الليمون الذي قدمته لها زوجته "سكينة"، وبينما هي تعلم تماما وتحس بعشرات الأنفاس التي تتجمع حول النافذة لتعرف سبب زيارة الست للشيخ ، أخرجت من حقيبتها السوداء اللميع مظروف به خمسون جنيه ا، ووضعته على الصينية النحاس.

- يا شيخ عبد الجواد، الجامع من زمان م تجدد ش، وحاله مش عجبني، الفلوس دي تتصرف فيها، وتشرف بنفسك على التجديد، والباقي لأهل الله.

- ربنا يزيدك يا ست حُسنة من نعيم الله، ونِعم الناس.

فانتهزت العبارة وقالت ما جاءت من أجله:

- يا شيخ عبد الجواد بيت الفقي طول عمره طاهر.

- طبعا يا ست إنتم الأساس.

فنهضت لتسلم عليه، وضغطت على يده بما لا يجعله ينقض وضوءه فقط، ولكن بما يتيح "لسكينة" زوجته أن تتباهى وهي ترش الماء المعطر بالصابون مرتين في يوم الجمعة المباركة.

استطاعت أن تخرس الشيخ عبد الجواد لكن "النقود لا تفلح دائما", فهناك آخر قريب إليها بدرجة خال رفض حتى أن تحدثه في شأن "يحيى", كما رفض زواجه بابنته "صفية". فالخال لم يكن راضيا عن زواج ابنة أخته حسنه من "البيه فؤاد"، واتهم أباها علانية بأنه باع ابنته مقابل عشرة قراريط، وأن ما بين حسنة وفؤاد بك ليس إلا نزوة وإن كانت على يد مأذون.

لم يكن لهذا الكلام معنى، خاصة بعد مرور أربعة أعوام على زواج حُسنة وإنجابها لمنير وعاطف، ولكن لو فكر البعض قليلا, وعرفنا بقيام ثورة يوليو والشائعات التي انتشرت عن تجريد الإقطاعيين من أملاكهم، لأمكننا تفهم دوافع الخال الذي أعلنها صريحة، إنه لن يزوج ابنته من طالب فاشل، لا يكف عن إغضاب الله وجلب اللعنة للبلد بالمساخيط التي يصنعها.

وقد كان لديه عدة تبريرات أقوى مثل:

- إنهما أشقاء في الرضاعة.

- إن يحيى لم يكمل تعليمه بعد.

- إنه لن يزوج ابنته لأقل من مهندس زراعي واسمه رزق.

ومع كل التبريرات فقد شعرت البلدة وخاصة النساء أن الرجل قد أخطأ. فيحيى الذي يصغر حُ سنة بثلاثة أعوام، كان وسيم ا كملاك , وفي عينيه سماحة وإغواء يدفع النساء، وخاصة الحوامل للتحديق في وجهه. يذهب إلى الكتاب، يحفظ القرآن, ينتقل إلى المدرسة الابتدائية ثم الثانوية، لكنه لا يترك حافة النهر، يجلس عادة تحت شجرة الصفصاف التي تتبارك بها النساء ، و يسمونها شجرة النبي.

تتجمع النساء حول الشجرة، يتأملن في إعج اب الأشكال الطينية التي يصنعها "يحيى"، مركب، جمل، عريس، عروس . يجمع الأشياء فوق شباك "المندرة ", وأحيانا يهادي بها " صفية " التي كانت زميلته في "الكُتَّاب "، وككل الحكايات القديمة كانت هي أجمل بنت وكان هو أجمل ولد, ومن فم الأولاد الذين يقسمون العالم على هواهم دون حسابات خرجت عبارة "يحيى لصفية وصفية ليحيى"، وبعد انتهاء الكُتَّاب مُنعت صفية من الخروج للبيت إلا للضرورة القصوى، التي تسمح بأن يراها

العريس المناسب، أو تتحدث أخت لأخيها عن جمالها وأدبها وكمالها، الأصيلة بنت الأصول، وذهب"يحيى" إلى المدرسة الابتدائية في "الزرقا"، ثم المدرسة الثانوية بالمنصورة، إلا أن الحب كنبات اللبلاب تعرف أين جذوره، ولكن لا يمكنك التنبؤ إلى أي مدى سيصل.

نمت العلاقة بين صفية ويحيى بتلقائية وبراءة ، يرعاها ويحنو عليها ويدافع عنها ، وهي تعطيه من مصروفها وتقاسمه ما تشتريه، وفي ذهن كل منهما "يحيى لصفية وصفية ليحيى"، و بمرور الوقت اكتشفا أن ما بينهما يختلف عما بين يحيى وحُسنة , تنبهت صفية إلى الأمر وإلى ما يعتريها من شوق ليحيى, وبدأت تنتبه إلى تفاصيله وتحفظها, وأصبحت صفية هي النموذج الذي يجسد كل تماثيل ومنحوتات يحيى، وتزايد الضيق الذي يعتريه إذا غابت، والأحلام التي يرى فيها صفية وتنفس عن ضغطه، وأمسى لا ينام إلا وصفية في عينيه، في شفتيه. عذَّبه كثيرا شعوره بإثم أحلامه ، وزاد من شعوره إحساس قديم بالذنب تبعثه ألعابه الطينية التي هدده الشيخ "عبد الجواد" وهو تحت يده في الكُتَّاب "كل روح ستأتي يوم القيامة وتقول لك أحييني ولن تستطيع ".

لم يكن يحيى وحده الذي يتألم، صفية أيضا كانت تعاني، ولكن قدرة البنات على الإدراك أكثر عمقا، حتى

كان يوم جاءت فيه صفية وهي تحمل صفيحة الماء لتزود به بيت عمتها ، كان يحيى وحده بالمنزل وكانت صفية تتمنى ذلك ، نهض ليلقاها ويساعدها في إنزال الصفيحة، سقطت مياه الصفيحة عليهما، ابتل جلبابها القطني، وجسم تفاصيل جسده ا فكانت تمثالا دقيق النحت كم ا تمنى دائما أن يصنع ، لكن أحاديث شريفة يرويها الشيوخ تجعل ه يكتفي بمشاهدة التماثيل في متحف المنصورة، دون جرأة على الاقتراب من أو لمس الصلصال.

وإذا بهما جسد ان ملتصقان, أعضاؤهما تصرخ بالرغبة في الالتحام والعودة إلى الأصل خلية واحدة انقسمت وحان أوان عودتها واكتمالها ، تقلبا على تراب الحجرة الداخلية، لم يشعرا بالطين الذي لطخ ملابسهما، كان كل منهما يعرف جسد الآخر، كأنما تعانقا آلاف المرات، انتقلا إلى الغرفة الأخرى حيث خلعا ملابسهما، ولم ينتظرا فكل عضو من أعضائهما يعرف طريقه للآخر تماما.

تسربت كل مخاوف صفية وبقت مستكينة على ذراع يحيى، وعندما ارتو ت شعرت بالعطش , قام يحي ى ليحضر لها قلة الماء , وهو واق ف يشرب تأملته صفية بعينيها، تكوينه الدقيق، شعره الهتهدل وقد التصق على جبهته، والشعيرات القليلة النابتة في وسط صدره، السرة

التي يزداد تحتها كثافة الشعر، الوحمة الحمراء في فخذه الأيسر، شعرت صفية أنها ربما تكون المرة الأولى والأخيرة التي يُتاح لها أن تتأمل جسد رجل تحبه ، وشعرت بحنين طاغ ورغبة في البكاء ، أن تضمه مرة ثانية إلى صدرها، تضمه كوليد ستحمل فيه تسعة أشهر وعندما يصبح بين يديها يكبر ، أخذت تبكي ، ويهتز جسدها في تشنجات متتابعة، لم يفهم لها يحيى سببا، ولما هدأت ملأ يحيى فمه بالماء وقرب فمه من فمها ، وعندما التحمت الشفاه سقاها الماء مختلطا بريقه، وظل يحيى يهدهدها .اعتقد أنها خائفة من عاقبة ما حدث بينهما ، فأخذ يقبل رأسها ، ويقسم أنه لن يتخلى عنها أبدا، وسيفعل المستحيل لكي يرضى أبوها ويتزوجا ، ومن أجل عينيها سيترك التماثيل ، فهي تمثاله الوحيد وكل عالمه.

لكن في المساء كانت قراءة الفاتحة بين خاله والأستاذ "رزق" مفتش الزراعة الذي يشتهر بعينه الفارغة وشربه للحشيش، وبموافقة صفية التي استدعاها أبوها وأخبرها أن المهندس رزق تقدم يطلب يديها والليلة خطبتها ، وعندما همت بالاعتراض صرخ فيها – اخرسي يا فاجرة.

ولطمها على وجهها، فانسل "الحلق" من أذنها ، وتمزقت حلمة أذنها اليسرى، وللمرة الثانية في هذه الليلة كان

على صفية أن ترى دماءها، سقطت ثلاث قطرات من أذنها على تراب الحجرة، ثلاث قطرات حارة ، ساخنة , لزجة، قانية، قادرة على استحضار الحياة، ل تعود "حواء" مانحة الحياة التي تجدد نفسها كل شهر . وتُكمل "إيزيس " رحلتها بحثا عن الأجزاء الضائعة من جسد حبيبها الممزق، تنقب عنها في كل مكان حتى ت تمكن من جمع ها كلها، ثبتتها معا برباط، تستخدم تعاويذها لكي تعيده إلى الحياة.وتتخلق "عشتار"، تفر من أعماق العالم السفلي لتنقذ العالم من الجدب وشبح القحط فتهطل الأمطا ر، وتجري الأنهار، وتثمر النباتات، وتكثر الغلال، وتزداد المحاصيل، ويرفل العالم بالرفاء والغنى.

في تلك اللحظة تشبعت صفية بهذه القوى القادرة على دحْر الموت وتحقيق الخلاص.وما كان لي كملك للموت أن أتدخل أو أمنع شيئا ففي مثل تلك اللحظات يصبح الإخصاب والموت وجهين لعملة واحدة. ومن الدماء وروح الإخصاب ، تكونت صفية أخر ى، صفية جديدة لا أدري موقعها مني ، ولا تعتقدوا أن الأمر كان يسيرا عليَّ فلطالما تساءلت ماذا أفعل عندما يأتيني أمر الرب؟ أي الصفيتين سوف أصطحب وأيهما التي تنهمر دموعها وهي تقول لأبيها:

– مش عايزه أتجوز.

– ليه؟!

– يحيى؟!

اخترقته عيناه الثاقبتان النافذتان:

– هتتجوزي رزق أو موتك على إيدي.

ووضع حذاءه على رقبتها:

– حاضر. حدد الميعاد المناسب.

– لو سليمة هيبان، لو كنت معطوبة..

وفمها ملوث بالدم رددت بآلية:

– شرفك مصان يا با.

هوت بها كفه الكبيرة إلى الواقع, لم ينقطع فرع اللبلاب، فقط التوى قليلا, لكن العين الحادة والصوت الغريب الذي لم تسمعه من أبيها من قبل أصابا روحها بالعطب ، وأيقظها على حقيقة لم تكن تعرفها في نفسها ، ووصمها بعار ستظل دون وعي منها تؤكده في تصرفات لا تعرف قرارها ، تمارسه مع زوجها فكانت تراقب نفسها وهي معه، وتصر على إنهاكه منذ ليلتهما الأولى. بعد أن استوعبت أمها سرها، وبهدوء ودربة لوثت مابين فخديها بدماء الحمامة التي أكلها "رزق" ولم يكمل نصف الثانية، كي يتيح لقرش الحشيش وربع "البراندي " أن ينقله إلى

الجنة. التلامس المباغت كانت تخطط له بحنكة ودربة ، لياليي تشتعل فيها ولا تنطفئ ، بينما زوجها إلى جوارها راض كل الرضى عن "اللؤة" التي تزوجها، والتي يتباهى بقدرته على إشباعها في جلسات "الحشيش " على شاطئ النيل ، وعندما تحاول واحدة من عشيقاته القديمات التعريض بها يحلف بجسدها ويصفها، وأصبحت صفية مشاعا على النواصي والمقاهي، تُراقب حلمتي ثدييها المخترقتين للسوتيان و الجلباب و الطرحة، ويعد الجالسون في الشارع حركات مؤخرتها.

صفية التي جاء أحدهم إليها في منتصف الليل ، وخبط على بابها عاريا وبين يده عضوه مترنحا:

- أموت وألحس يا صفية .

فأغلقت الباب في وجهه ، وأغلقت فمها وروحها وحواسها على صرختها، لكن صفية الأخرى، نحتها جانبا ، وفتحت الباب لتجد الرجل ماز ال متسمرا في مكانه، فسحبته من عضوه، أرقدته على المصطبة في الحوش الخارجي ، وبركت فوقه وظلت تهتز عليه حتى قارب الفجر على الآذان ، وبدأت غبشة الليل تختفي، والرجل تحتها فارق الوعي، وعندما نهضت من فوقه كان عضوه كعود ملوخية جففته شمس الظهيرة. أخرجته من رحمها ، وألقت به وسط عيدان القش أمام الدار. وعندما مر

أحدهم ورأى النائم على المصطبة، حاول إيقاظه ، ولما فشل خبط كفا بكف وتمتم:

– لا حول ولا قوة إلا بالله. الراجل مات.

تعاطفت النساء مع صفية واعتبرنها تميمتهن، كأنها ثأرت لهن من أزواجهن الذين يمضون بعض الليالي في أحضان غوازي الموالد، وعندما يعودون يتبرمون من زوجاتهم ويشبهونهن بالبقر. تلاشى الكلام عن صفية، صارت لها رهبة وسطوة، وكل من توسوس له نفسه بالهمس عنها يتذكر الرجل الذي وجدوه أمام دارها، فلم يعد الرجال يتباهون بفحولتهم، فقد صار هناك حاجز ينتظر الموت من يعبره، وهو ما لم يحاوله أحدهم بعد موت جارهم. تبتسم المرأة التي يتنمر لها زوجها، وتطيب خاطر نفسها، وهي تشد اللحاف على وجهها:

– والله أنت مالك إلا صفية تعرفك مقامك.

وعندما عاد "يحيى "بعد ست سنوات من دراسته للطب ، كان ما يشغل "صفية" كيف يمكن أن يكون العتاب؟ من أين يبدأ؟ تخشى لحظة المواجهة، لكنها تحتاج إليها لاسترداد روحها التي تشعر بانقسامها. يستطيع الإنسان أن يحمي نفسه من الآخرين ولكن من الصعب أن يحمي نفسه من نفسه. تتساءل من منهما

ترك الآخر هل هي التي تخلت عنه حين استسلمت لعريس أبيها؟.هل هو الذي هرب ولم يعد إلى البلدة إلا بعد أن ظن الجميع أن ما بينهما انتهى.

في غيابه تزور زوج عمتها وتنظف الحجرة التي شهدت حبهما، تتلقط أخباره من حسنة، لا يرد لها ذكر في خطاباته، لكنها تعتبر عبارة كيف "حال أهل البلد" لها وحدها.هل تجرؤ على لمس خطابه؟ خطه المنمنم بقلم أسود على ورق وردي به ورود صفراء.

عاد إلى البلدة منذ ثلاثة أيام، لمحته في طريقه للجامع مر من أمام بيتها، هل يعرف أنها في الداخل؟ أرسلت لها حسنة، لم تذهب تعللت ببرد أصابها، زارتها حسنة، وهو معها، فحصها، تعامل معها كأنها مجرد مريضة، لم تكن مريضة، لكنها الآن مصابة ترتجف من الحمى.

– حرارتها مرتفعة.

يتهمها بالخيانة؟ نسيها؟ أحب زميلة له؟ لماذا يعاملها بهذا الحياد؟ ما الذي تريده؟ ذهبت إلى بيت عمتها كي تشكره.

كان غاضبا حانقا, و كانت هي هشة منتفخة كبالون ينتظر لمسة حانية تعرف خبايا روحها، وتجعلها تستسلم لرغبتها ، وتأخذها بعيدا إل ى الضفة الأخر ى لنهر جفت

مياهه، أصابعه القادرة على تمسيد مسامها والنقر على خلاياها كي تخلع جلدها الميت ، وتنبت لها حواس جديدة,

- هتفضل تحبني؟

- طبعا.

- مهما حصل؟

- مهما حصل.

وعندما اجتمعت العائلة للاحتفال بعودة يحيى وبينما هم مجتمعون في الحديقة في انتظار الغداء، اقتربت طفلة من صفية وطلبت نفخ بالونتها.

- بنتك؟

هزت رأسها موافقة، أشار يحيى للصغيرة، استكانت في حضن أمها.

- روحى لخالك يا نور.

قبلها:

- بنتك شبهك. حلوة قوي.

همست:

- بنتنا.

وضعت البنت في حجرها، ورفعت فستانها، وكشفت عن وحمة حمراء في منتصف الفخ ذ، ستستغرب لها الداية في كل مرة تلد فيها صفية ، وهي تخبط على مؤخرة بناتها الثلاث نور وشمس وقمر واللاتي سيولدن دائما بعد سفر يحيى بسبعة شهور، لكن من يحسب أو يهتم لهذه التفاصيل التافهة.

- بناتك حلوين يا صفية.
- بس يعني الوحمة.
- يا أختي بكره تروح.
- بتتوحمي على إيه يا صفية؟
- بتوحم على أبوهم.

وعندما سألتها حسنة يوما ألا تشعرين بالندم؟ أجابتها:

– م ش ندمانه على اللي عملته، ندمي على اللي معملتوش.

قبل أن يسافر إلى ألمانيا للحصول على الدكتوراه أحضرت كومة من "اللبان الدكر "، وطلبت منه أن يمضغ ها واحدة تلو الأخرى، وبعد أن يفرغ من واحدة تأخذها وتصرها في منديل لا يفارق ثدييها ، وكان من أعجب ما تتلقاه حُسنة من أخيها من هدايا للعالمة مع خطاباته كيس اللبان الممضوغ لصفية.

وبعد أن استقر يحيى  في القاهرة وفتح أول مستشفي للتجميل في مصر، كرر رجاءه:

- اطلبي الطلاق ونعيش في القاهرة.

- رزق عمره ما هيوافق.

اصطحبها لرؤية فيلته في المعادي، بيضاء من الخارج، دورين جديدة، بريئة، خفيفة كأنما تطير في الهواء. تشاهدها من بعيد والسيارة تقترب منها، دخلا الدور الأرضي، مفروشاته دافئة الألوان، والإضاءة ناعمة، قادها إلى المدفأة، مصممة على الطراز الإنجليزي، فوقها تراصت عدة صور مؤطرة بالأسود.. صورتها، صور لبناتها وهن في حديقة السرايا...

أمام المدفأة كرسيان من القطيفة الزرقاء

- هنا نجلس في الشتاء.
صعدا الدور العلوي.
- أوضة البنات. هي أوضه واحده، لكن واسعه.
فتح بابا آخر: ودى أوضتنا!
لكنها لم تشعر بذلك. سألته فجأة:
- إنت ليه مجوزتش لحد دلوقتي؟
- مستنيكي!!

شعرت أنها منتبهة لكل ما يحدث بينهما . تراقبه كما اعتادت أن تراقب زوجها . عندما رقد بجوارها، تركت له يدها يقبلها، وأخذت هي تراقب السقف، زجزا ج ألوانه المتداخلة بين الأبيض والبمبي حتى منتصفه حيث فتحة دائرية من زجاج شفاف يطل على السماء والنجوم البعيدة.

يتجمع المتناثر من ومضات الضوء، تجلس على حافة السرير، تتعرى تحت المخروط القادم من رحلته اللانهائية، متعبا محبطا غريبا، تستكين في كفها الومضات الواهنة، تغتسل بها تتلألأ في الكف خطوطه المحجوبة. أمام مرآة الحمام تمشط شعرها، سقطت ثلاث قطرات دم من أنفها، امتزجت القطرات الثلاث مع مياه الصنبور وتسربت إلى المجاري. عادت إلى الحجرة، ما زال يحيى نائما محتضنا بذراعه مكانها الذي سيظل فارغا.

❖

# الفصل السابع

أشياء كثيرة يمكن أن تشتهيها، وتكون الأيام كفيلة بتحقيقها لك، ولكن ما أكثر الأشياء التي لا يستطيع حتى القدر تحقيقها.. أن تكون لك قدرة طائر على فرد جناحيه والمرور أمام قرص الشمس لحظة غروب، أن تكون نقيا كالبلور.. وكما النجوم البعيدة، التي تعلم أنك مهما حاولت أن تفعل فلن تصل إلى مكانها، أو يكون لك وميضها كانت "حياة الكاتب".

تقف السيارة أمام السرايا ينزل "عبده" السائق مسرعا يفتح الباب، تنزل بزهو طاووس، وكبرياء حصان. وباعتياد وأريحية تمد يدها لتستند على يد ابن عمها فؤاد بك. هادئة، واثقة، لا تبالي بالعيون التي ترمقها من بعيد. عشرات البنات المجتمعات أسفل الجسر يغسلن ملابسهن، وتتكدس أمانيهن على باب السماء، ولما طال الانتظار أدركن أن السماء لديها من المشاغل ما هو أهم بكثير من أمنياتهن المستحيلة.

كذلك أدركت البنت التي أعرفها أن القدر سيكون عاجزا حتى عن تحقيق هذه الأمنية لأية منا، فاكتفت فقط أن تكون لها ابنة تعلمها كيف تبتسم دون أن تكشف عن أسنانها، وأن تتحرك بمثل هذه الرقة، وهذا السحر، ويكون مرورها رهيفا كفراشة، شفافا كطيف.

أي روائح كانت تحملها "حياة الكاتب"؟! فتسكر البنات بالأحلام والرغبة، فيجتمعن مع أول فجر لمجيئها، تدق الواحدة على حائط الأخرى. في المقابل، تكون هناك حركة أخرى، موازية، خفية، لكنها معروفة لكل الشباب. ولا يخلو الأمر من عجوز متصابي، ضعف بصره فلا يراهن، لكن الحماسة والإثارة تستدعي الأطياف التي تملأ ذاكرته، وتساعده حركة الماء، ووشوشات البنات على استحلاب ذكرياته، واسترداد بعضا من الدفء إلى عظامه اليابسة.

ومن فوق الدور القريبة من البحر ومن خلف الشيش تكون الفرصة ليتأكد من يريد خطبة أية فتاة من تقسيمات جسدها الذي تلفه الجلابية الكستور دائما.

مع الليفة والصابونة يطول وقت الاستحمام، تتحسس كل واحدة أعضاءها. عادة ما أبدأ بثديَّ أكورهما فيفيضان عن كفي، أضغطهما، أدور حولهما بالليفة، يتغطيان بفقاقيع الصابون، وتبرز حلمتهما القادرتان على اختراق السائل الحليبي، أنزل إلى بطني، بحركات متوازية أدعكه، تستدير الحركات عند منطقة السوة.

الماء لديه قدرة على تكبير الأشياء.. تتسابق البنات، لكن واحدة كانت تنأى عن الحلبة فهي الأجمل دائما بين البنات، وهي مقياس الجمال، فهذه صدرها أصغر من "صفية"، وتلك مربربة، لكن فخدها ليس مدورا كما

"صفية". لم تكن "صفية" تخجل من جسدها ويبدو أنه كان الأقرب إليها. تنزلق قطرات الماء على جلدها كحبات العنب غنية وبلورية تغري اللسان بلحسها، ورغم دخول الماء إلى بيتها كانت تصر على حمامها النهري.

– ما يصحش، بناتك كبرت وعندك حمام في بيتك.

– النهر حنين، بيفهمني ويحن عليَّ. مية الحنفيات عطنة، ما أتحملهاش.

"صفية" قطعة سكر، زاد تركيزها فلم يتذوقها أحد إلا وشهق من حلاوتها، أحلى مما يمكن لأهالينا أن يقدروا، وهم الذين لا يرون للشيء فائدة إذا لم تكن له وظيفة، والمهمة الوحيدة لجمال "صفية" أن تتزوج رجلا غنيا أو على الأقل مستورا، لكن جمالها كان في الوقت نفسه نقمتها وذنبها، يخبرها "رزق":

– عمرك ما حبتيني في يوم يا صفية.

– وليه ما طلقتنيش ؟

– مقدرتش. تصدقي بالله. أهل البلد بيحسدوني عليك، وعينيهم بتقول إنهم عارفين.

و"حياة الكاتب" ؟ دائما تراوغين عند ذكرها..

أراوغ! بل هي التي تراوغني..

ما إن ينتصف الليل حتى يصل إلى سمعي صوت موسيقي ناعم، هادئ، منتظم، كأنه تنهيدات لأصوات مكتومة، النور مقطوع أو مُطفأ، أحمل شمعدانا في يدي، من الدور العلوي المطل على الصالة أرى شبحا يرقص في الظلام دون أن تزل قدمه أو تتعثر في قطعة من الأثاث.. يدور حول نفسه.. يلف.. حركاته لولوبية، متماوجة، مذبوحة، تتحرر روحه من جسد منهك، معذب، يخنقها وتضيق به. هذا الأداء لا يمكن أن يكون لرجل ، الرجال لا يعرفون رفرفات الطير الذبيح.

كانت كل حركات جسدها تتماوج مع اللحن ، تنثني معه ، تستدير ، وهي تكاد تذوب . أخذني رقصها، وعندما انتبهت لنفسي ، خمنت أنها ليست "راوية".. "راوية" أطول وأعرض من الشابة التي ترقص أمامي الآن ، ولا تكاد قدماها تلامس الأرض. ابنتي شعرها متوسط الطول ولا تنزل الصالة الكبيرة دون أن تغطيه بإيشارب ، والتي أمامي شعرها مقصوص "آلاجرسون".

الأهم ابنتي لا تملك خفة الروح التي تمتلكها من ترقص الآن ، وتدور حولها كل أزهار الستائر وتتبعها أينما تمايلت ، وترسم حولها هالة من الزهور كعصفور صغير يفرد جناحيه للمرة الأولى فتتجاوب معه كل المخلوقات المحبة للوجود. وبالخفة نفسها تفتح غرفة المكتب وتتلفت إليها ،

فتتكوم الأزهار حول قدميها وهي تنظر إل ى صورة "فؤاد". وقفت خلفها تماما، رأيت دموعها في وجه "فؤاد"، عكسها زجاج الصورة المجللة بشريط أسود، على الزجاج نفسه انعكست صورتي والشمعة في يدي ، التفتت إلىَّ والتقت عينا.

سنوات طويلة ظلت هناك، فهل ملت وحدتها؟ خرجت الفراشة من الشرنقة، رشيقة، قوية، جائعة للحياة.. تعزف لحنها الخاص وتسمعني قصائدها

يجتمع على صوتها الرقيق كل ساكني السرايا. هي موهوبة جدا.
يصفقون، أمد لها يدي بورقة من جريدة.. إلى هواة التأليف القصصي
يمكنك الاشتراك في مسابقة القصة التي تنظمها المؤسسة المصرية للطبع والنشر لطبع قصتك على نفقتها، اطلب الشروط من دار المؤسسة 21 ش الألفي، عمارة الطويل، ت 915150.

هل يمكن أن تكتب عني قصة؟

ينتظر ساكنو البيت قصتها لكنها تعود وفي يدها عدة سطور. *احتاز الليل حد المنتصف ولازلت أمسك بقلمي، أحاول أن أكتب شيئا، ولكن القلم ساكن سكون الموت، والحق أن له العذر فيما أصابه، فرأسي بيضاء*

*خالية من أية فكرة يمكن أن تكتب، تبخرت الأفكار منها كما تتبخر المياه في الصحراء، وقد بدأت أشعر بالقلق، فالوقت يمر وأخشى أن تضيع الليلة هباء، كما ضاعت سابقتها، لذلك أنظر إلى قلمي أستعطفه أن يتحرك من مكانه، وكأنه المسئول عن هذا الجمود لا أنا.*

الليالي لدينا طويلة ماذا نمتلك غيرها؟ لكن الليلة لا تمر دون مفاجأة، تفتح ألبومها، أقلب صفحاته المليئة بصور زفاف المشاهير، أجدها في كل الصور مرسومه بالقلم الأحمر، وجهها مبتسم ويدها ترفع باقة زهور، أمام الأميرة "فوزية" والأمير "محمد رضا بهلوي"، وبجوار "هدى عبد الناصر" و"حاتم صادق" في صورة الزفاف الرسمية، حيث تقف العروس أمام العريس، وفي يدها باقة زهور، والعريس خلفها ينظر للكاميرا مباشرة، بينما العروس تخطف نظرة للجهة اليمنى من الكادر...

بحركة مباغتة أغلقت الألبوم قبل أن ترينا الصورة الأخيرة، ألححنا عليها، كانت صورة زفاف"جيهان" الابنة الصغرى للسادات، لكن الصورة كانت ممتلئة، الجيهانتان تحاصران الرئيس المؤمن، وتكتمل الصورة بالعريس وأمه وأبيه "عثمان أحمد عثمان"، فلا مكان لحياة أو لزهورها، فقط بعض البقع التي تكونت من تساقط دموعها .

نواسيها ...

تنحني وتبدأ في رقصتها التالية، تدور على الكراسي بحثا عن من يشاركها، تقترب مني، على قدمي تجلس "حبيبة"، تمد يدها لها، تنجذب الطفلة الصغيرة لسحرها، تنزل "حياة" على ركبتيها، يصبح وجهها مواجها لحبيبة، بيدها الصغيرة تبعد البنت شعرها الناعم عن جبهتها، تطويه خلف أذنها، تقبلها، ترقصان معا، تستمر في تعليم الصغيرة كيف تكون الخطوات منتظمة ورشيقة.. يبتعد الضوء عنهما قليلا، يتركز على الحائط المواجه لحجرة المكتب، ومن خلف الستارة تخرج بنت أخرى وهي تغني وترقص.." بحلق لي، بحلق لي، وبص لي"..لا تفارقها عيناي، ويدي تضغط على يد "فؤاد" واليد الأخرى تتحسس بطني الذي يحمل زرعه الأول، تغمرني كل نقطة ضوء تتسرب منها، تغلفني، أمتصها، تظل مخزونه في رحمي إلى ساعة لست أعرف ميقاتها.

جميعنا يتمني البنات، البنت دافئة، حانية، يمكنك أن تعيد معها طفولتك.

أفهم لماذا حرصت "حبيبة" على أن يكون جنينها طفلة.

لكنك تقولين أنه لم يكن لديك اختيار الاستنساخ يعني ولداً من الرجل وبنتاً من المرأة ...البنت يتم تدليلها، شرائط، ألوان زاهية، لعب..

سأشتري لابنتك كل اللعب التي أقرأ إعلاناتها مع ملاحق الجرائد الصباحية.. عروسة بيبي وورلد، تاتو، تسريحة، طاقم سفرة، طاقم مطبخ،

منزل العائلة السعيدة.. هل كنا عائلة سعيدة..؟ منير.. اشرب اللبن، انزل من على الشجرة، لماذا تأخرت ؟

عاطف.. لا تذاكر بصوت عال، اخفض صوت التلفزيون، لماذا لا ترتدي البلوفر؟

راوية.. ابعدي القطة عن طبقك، نظمي سريرك، لماذا لا تلعبين مع نور وشمس؟

ستكون ابنتك موسيقية، لا يوجد في العائلة موسيقي، البيانو في السرايا لا يفتحه أحد، أقصى ما علمته أن أصابعه البيضاء عددها 52 والسوداء عددها 36. توجد في الإعلانات ألعاب موسيقية على شكل قطة، كلب، حيوانات تكون فرقة موسيقية. جيتار موسيقي، طاقم قطار موسيقي. لعب كثيرة ظهرت لم تكن على أيامك، ولعبك مازلت أحتفظ بها كلها في حجرتك التي كانت حجرة أمك من قبل.

عندما ولدت "راوية" أصرت "الداية" على الحضور رغم وجود طبيب، وضعت يدها الصغيرة في طحين دافئ قادم للتو من ماكينة الطحين حتى لا تنمو أظافرها، ودهنت جسمها بدم وطواط، واهتمت كثيرا بتحت الإبطين وبين الفخذيين. لكني لم أسأل راوية إن كان تحت إبطها أو على عانتها شعر أم لا.

تواصل "حياة" الرقص، ترتفع جيبتها الواسعة عن ساقين متماسكتين، ليس فيهما أثر السنين التي حبست نفسها في الدور العلوي، بما يخفف مخاوفها التي كتبتها بخط يدها: *يتبدى لي، أحيانا، أني وثيقة الصلة بأهل الكهف، الفرق، أنهم لم يختاروا نومتهم في الكهف، وأنا اخترت نومتي في هذا السرير. خمسة وعشرون عاما وستة شهور وسبعة أيام، تركت علاماتها في جسدي وروحي. ما الذي خسرته؟ أيامي. عمري. شبابي. لقد أتاحت لي هذه الرقدة أن أراقب العالم من بعيد، وحافظت لي على محبة المحيطين بي، رغم التجاهل، لكني كنت مثل الأزهار التي نتذكرها في المناسبات.*

*تعودت على الكرسي، حتى نسيت أنا الأخرى، أني لست مشلولة لكني حزينة ومحبطة. كيف يكون شكل جسدي الآن؟ هل مازلت أحتفظ برشاقة سباحة في النادي الأهلي أم تضخم فخذاي، كآن الزمن لم يمض، وهذا هو المايوه، المقاس نفسه، رائحته عتيقة، لكن شيئا لم يحدث، فقط أصبحت أكثر حرية، هم تغيروا وأنا لم أتغير.*

لكن الزمن تغير كثيرا، و"حبيبة" أصبحت أطول منها.

حاولت أن تخرجك من أحزانك لكنك كنت مقيمة فيها، تخرجين منها وتعودين إليها. ترددت إليك كثيرا، تسألك متى ولدت حبيبة؟ يقولون: من

يولد في الصباح يكون ناجحا في أموره عظيم الشأن، ومن يولد بالضحى يكون رزقه بالتعب والمشقة والضنك. ففي أي وقت أنجبت منير وعاطف وراوية؟ أحاول أن أتذكر، ربما ولدتهم عند العشاء.

"حياة" هي الأقدر على مساعدة "حبيبة"، تحتفظ بكل رسائل العشاق والمحبين التي تنشر في صفحات القلوب الحائرة، ترصها بعناية في صندوق وترد على كثير من المشاكل. يمكنها أن تفهم السبب الذي من أجله تتمنى النساء إنجاب البنات، وفي الوقت نفسه يشكرن الله عندما يرزقهن بالولد. حنونة وطيبة، همست لي ذات صباح ونحن في الحديقة تحيط بنا أشجار النخيل المحملة بالبلح الأحمر والأصفر:

– نفسي أركب الحصان.

وعندما ركبت حصانها وجرت به على الطريق اعترضها ميكروباص، جفل الحصان، أو ربما هي التي خافت، حرن الحصان، جرح حافره، وسقطت في أرض مزروعة بالأرز.

عندما عادت قلت لها: احمدي ربنا إنك لم تصابي.

فنظرت إلى بدلتها التي لوثتها لطخ الطين ولم ترد، فقط دخلت غرفتها ولم تغادرها .

وبدأ الحصان يعاني من الجرح الذي أصاب حافره ولم تنتبهي له، فتصلبت عضلاته وفكاه، انتصبت أذناه وصار حساسا لأي صوت، حتى خطواتك الوجلة المقتربة منه، ذعر منها، في كفك حبات شعير لا يراها وقد غطي جفنه الثاني مقلتيه، يريد أن يستنشق، تتسع طاقتا أنفه لكن عضلات قفصه الصدري لا تسعفه.لا يتحرك، لا يأكل، لا يتنفس، هل تتركينه يعاني أم تتركينهم يطلقون رصاصة الرحمة على رأسه التي طالما اهتزت غرته لمرآك؟

مذكراتها في يدي.

*"سعادة الإنسان غير كاملة بل هي سعادة يشوبها شيء من الشقاء"*
*"علي أن أقّدِر بالضبط مقدار الحزن الذي أظهره وألا أنازع الآخرين أحزانهم حتى لا أخرج تماما من الدائرة".*

*"كنت أحتاج إلي من يأخذ بيدي، أحتاج محبة الآخرين كي أسترد محبتي لنفسي مثلما كنت البنت النابهة في مادة الحساب.*

لكن ما بال خطوطنا متشابهة بهذا الشكل، ما بالنا كلما مرت الأيام وجدت أن ما نتنازع عليه قليل، وأن ما يربطنا ببعض كثير، أكثر مما

تخيلت. فهل يمكن لها أن تكتب قصتي؟ أين هي الآن؟ بالطبع في الدور العلوي مع دادة وهيبة، هل أنت واثقة؟ لا.

لعلها تكون البنت التي ظللت أنتظر أن تدق بابي قبل الفجر، وأحيانا أفتح الباب الكبير في الصباح الباكر، أفتش في الحديقة، وعلى الطريق، علها تطلب حمايتي.

لكنها تنقذني من كوابيسي، فتأتيني مرتدية ملابس بيضاء، ترفرف بجناحيها الملائكيين، وحولها أطفال خضر منشرحي ن، وهي تبتسم لي راضية..

لو أني أتذكر من هي؟ لكن الأيام والشخوص تتداخل..

ماذا أفعل غير الانتظار؟

"حبيبة" تأخرت..و"راوية" تصر على إغلاق التلفزيون؟! أقف لها بالمرصاد، ماذا أفعل بدونه؟ كيف أضبط إيقاع البيت ومتابعة الخدم وإنجازهم لأعمالهم؟ أعمال البيت يجب أن تنتهي قبل موعد نشرة الثانية عشر ظهرا، والإفطار يوضع قبل أن تظهر عبارة الحلقة السادسة من مسلسل الظهيرة، والعشاء يكون مع مسلسل السابعة، أما الغداء فموعده ثابت لا يتغير في الخامسة. تتغير خريطة التلفزيون، وتتعدد القنوات، لكني لا أفطر أو أتعشى إلا عند عرض المسلسل.

– يا ماما لازم تفطري علشان تاخدي الدواء.

– لا. هصوم النهاردة.

– طول عمرك عنيده.

أنا؟ أي شخص أنا؟

سؤال متأخر.

حكى لي الموت في مسامراتنا الطويلة عن رحلاته مع العجائز والمسنين:

هناك "المسن القنوع": الذي يرضى عن حياته، ويقتنع بما حقق ولا يخاف الموت، وعلي أقل تقدير لا يسبب له اقتراب الموت أزمة نفسية.

و"المسن الجلد": الذي يعتقد أن الموت شيء لا يخيفه، إنما هو عدو يجب أن يقابله بجرأة وإقدام، فيعتمد على نفسه ويواجه مصاعبه النفسية والبدنية وكأنها تحدي شخصي له.

"المسن الغاضب": هو العاجز عن تخطي المتاعب التي يواجهها، ويواجه هذه المشقات بالحديث الغاضب، والصراخ الدائم مع من حوله ومع نفسه.

"المسن البائس": هو الذي لا يرى أملا في حياته، ويتمنى الموت حتى لا يكون عبئا على من حوله، ويفضل عدم البوح بآلامه وأحاسيسه خشية مضايقة الغير.

حتى عندما يحكي الموت عن العجائز تظل موقنا أنه يتكلم عن أحد غيرك. لكنك تصبح عجوزا حقا...

حين تدخل عليك واحدة رأيتها من قبل وتحدثك حول حاجة ابنك الثاني إلى نقود للسفر وتأسيس منزله كملحق دبلوماسي في لندن، تصغي إليها وسؤال يطن في أذنك، ما هي علاقة فاطمة الشغالة بعاطف ابني؟ تصب جامات غضبك على ابنك الذي يوسط الشغالة مهما كانت متانة علاقتك بها للتحدث عن حاجة له، وبينما السؤال يدور في مداراته اللانهائية، يخطف بصرك بياض ولمعة أسنان الجالسة أمامك، تستحلب أمومتك بتودد، تبرزه غمازتان في الخدين الممتلئي ن، وكما الوحي أو الإلهام وقبل أن تخطئ، أو يكتشف الآخرون حالك، واستقرار الوجوه في بحر النسيان، وضياع مخزونك، وغرقه في بحر الضباب، إذ بعود ثقاب يضيء الحقيقة ويعيد إليك ذاكرتك التي لم تشك في ضياعها.

وبدربة الذين اعتادوا المتاهات والخروج منها، أربت على كتفها:

– محلولة يا عيني.

تخرج من الباب وتدخل من البوابة الكبيرة، وهي في يد "عاطف"، والفرحة ترقق حديثه، وطبعه المحافظ الكتوم لمشاعره، وتجعله يتخلى عن حياده ودبلوماسيته لينحاز إليها، ويعلن رأيه واضحا صريحا مصادرا أية محاولة للتأثير على قراره، وناقلا لي عدوى حماسه وهو يقدمها:

– ماما "سناء" زميلتي في الكلية ووالدها كان سفيرنا في باريس. دلوقتي ترك العمل الدبلوماسي وفتح مكتب استيراد وتصدير.

– أهلا يا روحي نورتينا.

وبعد أسبوعين كنا في فيلتهم بالمهندسين نطلب يدها وبعد أقل من شهرين تسلم "عاطف" وظيفته وعروسه معا.

وبسفر "عاطف" خلا البيت إلا من "راوية" و"حبيبة" وصور "فؤاد" و"منير".

لكنهم يحضرون فجأة.. يقطعون دروسهم، والأولاد يتندرون ويسب كل منهم الأخر: أنت يميني رجعي، وأنت يساري متهور. جاءا معا وظلا يتقاذفان بالمخدات ولم تفلح محاولاتي في الفض بينهما، لكنهما بقيا ينامان في نفس الحجرة التي كوناها معا.

الحجرة مغلقة. رحل صاحباها بعد انتظام الدراسة، وثبات نظام الحكم، وبقي على الجدران "تشي جيفارا"، "عمر الشريف"، وتراب ناعم يراوغ الخادمات، يتسرب من الشيش والزجاج، السريران المتوازيان، طوابع البريد، أعلام الدول، شرائط "الشيخ إمام". أول سِنَّة سقطت من أسنان "عاطف"، انخلعت بالليل، فغسلتها ولففتها في منديل لأرميها في عين الشمس.." يا شمس يا شموسة خدي سِنَّة الجاموسة وهاتي لي سِنه جديده آكل بيها

البسبوسه"، لكن شمس اليوم التالي عندما أشرقت كانت المساحة التي تطل فيها على أراضينا قد تقلصت، ونسيت سِنة "عاطف".

أين "فؤاد" الآن؟ وأين "يحيى" و"صفية"؟

❖

# الفصل الثامن

أي حيرة كتبت على صفية؟

فقد كبرت بناتها الثلاث: "نور" و"شمس" و"قمر" وهذا أمر طبيعي.

أما غير الطبيعي فهو الشبه الكبير بينهن، ما إن يرى أحد من أهل البلدة إحدى البنات حتى يسألها: أنت أخت نور؟

وما يحدث بالفعل أن الشبه بينهن تزداد كثافة تفاصيله.. الشعر الأسود الناعم، العيون اللوزية، البشرة البيضاء، الغمازات.. ما إن تبلغ الواحدة منهن حتى تتطابق ملامحها مع ملامح أختها الكبرى.

هذا التشابه بات يشغل بال صفية، أما "رزق" فكانت البنات لديه بنتا واحدة لا أكثر، ينادي عليها عندما يحتاج إلى كوب ماء على الغداء أو كوب شاي.

البنات أنفسهن انتبهن إلى هذا التشابه، وأصبح لديهن إصرار على تأكيده، عند اختيار تسريحة الشعر، القماش والأحذية، وفي مدارسهن كانت الواحدة منهن تتخرج وتأتي الأصغر، فتتعجب المدرسات من الشبه بينهن.

هذا الشبه الذي كان مسار تندر، صار مشكلة لمن يريد أن يخطب واحدة منهن، فعندما يأتي خاطب مع أهله

ليقول: أريد الزواج من "نور"، تجلس البنات الثلاث أمامه ويسألنه: هل يمكنك أن تحدد أية واحدة منا "نور"؟

تنمحي السنوات التي بين كل واحدة والأخرى، ولم يكن العمر قد رسم أيا من خطوطه على الوجوه الغضة وحتى عندما يقوم بعمله فإنه هو الآخر سوف يشارك في اللعبة ذاتها، ويتواطأ معهن، ويرسم على وجوههن خطوطا رهيفة رقيقة لا تصل أبدا إلى حد التجعيدات.

نادرا ما استطاع أحد أن يميز بين البنات الثلاث، وإذا حدث لا يتعدى الأمر أن يكون مجرد تخمين.

لكن "صفية" كانت تعرفهن، وتوضح لحسنة كيف لا يختلط عليها أمرهن.. من رائحة الليمون التي تهفهف بمجرد مرور "شمس"، كنت وحدي في البيت يوم مولدها، ذهبت "نور" تنادي "رزق" من المقهى، وأنا نائمة على الكنبة في الصالة تحت النافذة المطلة على المشتل، ومع وجع الطلق تزداد كثافة رائحة أشجار الليمون، تنعشني قبل أن يغمى على.. من الليونة في حركة "قمر"، كم كانت ولادتها سهلة حتى أنها انزلقت قبل أن تصل "أم خليل" الداية. بمجرد أن أفكر فيها أجدها أمامي، دافئة، حانية، لم يكن عالمي ليكتمل دون هذه البنت التي لا تغيب ابتسامتها.

أما "نور" فهي رائحة الماء، وندى الفجر الذي كنت أتلقفه وأنا شاردة أيام حملها، وإحساس مثقل بالذنب والرجاء والخوف يغمرني، وجاءت نور، شربة ماء في ساعات القيظ والسلام الذي منحني العالم إياه، ولكن صراحتها مثل السهم تخيفني.

لا تخشى "صفية" على البنات إذا كن بصحبة "نور"، فهي التي تستطيع أن تتحمل الحقيقة التي لن تقولها "صفية" لهن، وكان الأمر واضحا بالنسبة لصفية مهما اصطدمت بالسؤال في لمعة عين "نور"، أو ارتسمت الإجابة متكدرة على وجهها فلن تقول، وكان الاتفاق الصامت ألا سؤال وألا إجابة.

وهى تتعجب كيف لا يفرقون بين بناتها الثلاث، ربما يكون في الأمر سحر أو "عمل"، ربما يكون "رزق" هو الذي ربط "العمل" كي ينتقم مني.

لا تريحها كلمات حُسنة: ولماذا يفعل ذلك لبناته؟ لا تدري صفية إن كانت تتخابث عليها أم أنها فعلا خرفت بعد وفاة ابنها، وقد يكون صحيحا ما ترويه راوية :"أصبحت أمي تستخدم العادات كما شالها الصيفي المشغول من الد انتيلا البيضاء بوروده المشمسة الواسعة، تضعه على كتفيها وقتما تريد وترميه على أقرب كرسي حين تمله، فتفتح الراديو على إذاعة الشرق

الأوسط ومازال جسد قريب لم يبرد في قبره، وتقف في الشرفة بشعرها الأبيض المعصوب بشريط زاه دون طرحتها وتدندن "عدينا ي ا شوق عدينا على بر الهو ى رسّينا" بينما النسوة يعبرن بسوادهن أمام البيت الكبير في اتجاه السرادق المقام وصوت المقر ئ يلعلع في السماء "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية"

وأحيانا تذهب لزيارة بنت من بنات العائلة لتهنئها بسلامة الولادة، فما أن ترى المولود حتى تقول:

– ماله وحش كده، يا اختي ده زي القرد.

تربت على رأس النفساء، تقبلها وتعطيها عشرة جنيهات

– متزعليش يا حبيبتي.

وتغالب دموعها وسط زغاريد السبوع

- يا ماما كسفتينا.

تضغط على يدي وتقول: ه يزوره قريب، الولد ده ولد موت.

لم يكن من مفر لحيرة "صفية"، وإن كنت لا أوافقها على شكها في زوجها، وأرى من واجبي أن أتدخل لتوضيح بعد الأمور:

فلا يعني كوني ملك الموت أن أكون حياديا مع جميع الأشخاص، لكني صدقا أضمن حيادي مع هذا الرزق، الذي يبدو باهتا كما ظل، ليس له من وجود سوى في جلساته مع أصدقائه لتدخين الحشيش والأفيون. ولا يزيد عن كونه رجلا أصلعا، عندما يضحك تتجمع حبات العرق على جلد رأسه المحمر، وتتناثر بقع بنية على جلد يده وعلى ذقنه يداريها بلحية خفيفة بيضاء.

يحيرني هذا الرجل، فهل كان يعلم أن "يحيي" هو أبو بناته، أشك، وما أدراك ماذا يعني الشك بالنسبة لي أنا ملك الموت، لكني أتصور - وأنا لا أملك يقينا- أنه غافلني في هذه النقطة.

ليس أمامي غير أن أختلق لكم رواية.. عدة روايات...

الرواية الأولى: أنه كان متزوجا من امرأة أخرى في بلدة بعيدة.. وبعد عام لم ينجبا، ذهبا إلى الطبيب، أخبره أنه لا يمكنه الإنجاب، وبعد هذا التقرير طلق زوجته لأي سبب، وطلب نقله إلى مكان لا يعرفه أحد فيه، وتزوج "صفية"، ولما وجد البنات حوله حمد لها وللبنات أنهن أعطينه شهادة رجولته وكماله، ولم يفضحهن كي لا يفضح نفسه.

الرواية الثانية: أن الشكوك كانت تساوره فلم يكن على يقين قاطع بشيء، ونفسر بهذا علاقته المتذبذبة بالبنات بين الحب والنفور، حتى أنه يتصرف في كثير من المواقف وكأنه ليس أكثر من زوج أم.

الرواية الثالثة: أنه مثل كل الرجال الذين لا يشكون، كان على يقين أنهن بناته ومن أجلهن كان يتقاضى الرشاوى من جمعية "تقاوي البطاطس"، كي يحافظ لهن على مستوى معيشة معين، ويضحي بسمعته من أجل مستقبل البنات. وهذا ما سيجعل "نور" ممتنة له وتصر على إحياء مشتل الزهور الذي أهمله.

فعلي "صفية" أن تمحو فكرة "العمل" من رأسها، وتنتبه لبناتها أكثر، وتبحث معهن عما يفتقدن، فالأميرات الثلاث يضعن شرطا لمن يريدهن.. فقط أن يعرفهن، أن يميزهن، أن يقول: هذه "نور"، هذه "شمس"، هذه "قمر". لكن الفتيات الثلاث كن متشابهات وزمن الحواديت قد انتهى، وفي حياة الناس ما هو أهم من البحث عن توأم الروح، أو الفلقة الثانية من حبة الفول، المهم أن تكون العروس مؤدبة،وبنت ناس.

والحقيقة أن كل من يتقدم لهن كان معذورا..

لكن البنات كن خياليات، ويطمحن إلى المستحيل، لذا تراني أتعاطف معهن، وأُحمل "يوسف إدريس" مسئولية مصيرهن، وعدم زواجهن، فهن لم يتمسكن بهذا الشرط إلا بعد قراءتهن لقصة "بيت من لحم"، أرعبتهن فكرة التواطؤ، وكان في حياتهن من الغموض ما يكفي، ومن التساؤلات الخرساء ما يثقل كاهلهن.

وعندما أصرت البنات على موقفهن وزادت حيرتها، أطلعنها على القصة، لكن صفية فهمتها بطريقتها، فزاد رفضها لكل محاولات "يحيى" الزواج منها.

إلا أنها ككل الأمهات لا تكف عن الشكوى.

تشتكي إلى "يحيى" في زيارة له في مستشفاه، وهي تجري الفحوص الطبية بعد شعورها بالألم في الجهة اليسرى من ثديها وإحساسها بوجود "كلكوعة" تحت إبطها الأيسر.

– البنات بقوا عوانس.

لكن "يحيى" كان يرى أن بناته مازلن شابات، وكان يمني نفسه بيوم تلين فيه رأسها ، ويعيش مع البنات، وهذا ما لم يحدث، فلم يكن أمامه سوى أن يجذب بناته إلى العالم الذي بناه لنفسه وأن يحتفظ بجزء منهن، فاشترى جهاز "ريكوردر" لكي يستمع إلى تسجيلاتهن، ويحتفظ

منهن بذبذات الصوت التي لا تفنى ولا تضيع ويسمعهن في أي وقت يريد. وأصر على إكمال تعليمهن في جامعة القاهرة.

- إنت البنات معاك طول الوقت، نفسي أقرب منهم.

تمنى أن يستقطبهن، وعندما تخرجت "نور" وفر لها وظيفة "مديرة الحسابات" في مستشفاه لكنها صدمته، عندما علم من "حُسنة" برغبتها في تأجير جزء من الفدادين الأربعة المحيطة بالسرايا لتوسع مشتل الزهور الذي أهمله رزق وأسمته "رزق البنات"

زارها في المشتل، وجده متفتحا بكل الزهور...القرنفل، الورد البلدي، الياسمين برقته وبياضه الناصع، البلاك روز السوداء النادرة بملمسها القطيفي، البنفسج، الليليم بألوانه الفوشيا والأبيض والبرتقالي، عصفور الجنة، الأوركيد، الجلاديولوس بساقه الشامخة، الماري جولد بلونيها الأصفر والبرتقالي.

وفي خلفية الزهور توزعت نباتات الزينة. هناك نباتات يعرفها: الفيكس ديكورا، البوتس، الأناناس، الأروكاريا، الأسبرجس الناعم، الصبارات: البلدي والشمعدان وجلد النمر. وأنواع أخرى يجهل أسماءها، فعرفته عليها: القشطة أوراقه تشبه مذراة القمح، الكلاديم: ورقته

خضراء قلبية مبرقشة باللون الأحمر أو الأصفر أو الكريمي وساقه ضعيفة، الرويو يشبه النخل ورقته مستقيمة وضعيفة، الدراسينا مانسنجيانا ورقته طويلة رخوة، الدارسينا مارجيناتا ورقته شريطية رفيعة.

- إزاي بتميزي بينها؟

- زي ما إنت بتميز بيني وبين "شمس" و"قمر".

- أحيانا بحس إنك بتكرهينني؟

- أكرهك!! ليه؟

- نظراتك.

- مش كره، ده وجع. كل مبشوفك بتوجعني، في أحيان كتيره، ببقى عايزه أحضنك، وكلمة بابا على لساني، لكني أكتمها فتوجعني.

- أنا أبوك، قوليها..

- اللي بيوجعني أكتر إن عمري ما كان لي الحق أتباهى بابويا، بابا رزق، عارفه انه مدمن، وإيده طويلة على فلوس الجمعية التعاونية. وإنت! عمري ما تكلمت عنك، أخاف يسألوني هو يبقى لك إيه؟

- ممكن نعيش مع بعض، ونسيب هنا خالص. أنا..

- لازم تفهم، مهما كانت عيوب بابا، عمره ما جرحنا، مفيش مره شخط في واحدة مننا، المشتل ده كان نفسه فيه، ومش ممكن أسيبه.

- وأنا؟

- مش هنديك أكتر من المساحة اللي إديتها إنت لنفسك.

- ممكن أحضنك؟

- لا. بابا معودناش إننا نحضنه.

لذا لم يصر على ذهاب "شمس" و"قمر" إلى القاهرة ما دمن سيعدن في النهاية إلى "رزق". واكتفى منهن بما يختلسه من أوقات متعة صغيرة، مثل ذهابهن معه إلى الأوبرا. اخترن يوم الاثنين لحضور العرض الختامي لأوبرا "كارمينا بورانا" للموسيقار الألماني " كارل أورف"، التي كان مقدرا أن تكون خاتمة العروض الشتوية لحفلات دار الأوبرا، كانت شيئا مختلفا وجديدا. في الاستراحة أتفقن على تكرار التجربة، لكن هذا لن يحدث فدار الأوبرا احترقت بعد ثلاثة أيام من تلك الليلة التي ستبقى في ذاكرتهن ويحكين عنها كلما شاهدن "عبد الحليم" يغني "نار يا حبيبي نار"، أو "فريد الأطرش" وهو ينادي على "فاتن حمامة"، ومازالت الحكايات على ألسنتهن وهن

يشغلن "بلوفر" من الصوف لطفلة جديدة قادمة لهذه العائلة.

بالطبع لم تكن الزيارات القليلة أو الجلسات الصغيرة في حديقة "جروبي"، أو حتى مساعدتهن في مشتلهن تريح يحيى أو تزيح قلقه من الحرام الذي كان يشعر به تجاه علاقته بصفية التي تصر على عدم الزواج به؟ ومحاولاته المستميتة معها، سأتزوجك غصبا عنك. لكن شيئا لم يثنها عن قرارها.

ربما هي "صفية" الأخرى. هل نسيتموها؟ "صفية" التي لا تحبونها؟ ربما كانت تقود "صفية" في دروب من المتعة لم تعرفها حتي مع "يحيى الفقي"، لكن ما يمكن أن أقوله لكم إن هذا القلق وهذه التساؤلات، لم تؤثر في وسامة وجاذبية "يحيى" رغم أنه في الستين والفضل للكريمات والهرمونات، حتى أن "صفية" حين انتهى ما بينهما وعاد فقط ابن العمة وأبو البنات لم تكن تندم على شيء من علاقتها معه سوى أنها أضاعت على بناتها فرصة عريس وسيم ورشيق، على الأقل كانت تطمئن على واحدة من البنات، وظل "يحيى" في خاطرها بطلا لأفلام الأبيض والأسود، لم تصبه نغبشة الألوان.

ورغم علاقاته المتعددة التي كان يسميها احتياجات ضرورية، إلا أن "صفية" ظلت في الأماكن العصية على التفسير، في منطقة هل حدث هذا فعلا أم لا؟ وعندما يجلس أمام الفضائيات ويشاهد الجميلات اللاتي منحهن بمشرطه جمالها، يجد أن نسيانه لها أمر عليه ألا يتعب نفسه في محاولته، فهي قادرة على اقتحام حياته وفرض نفسها ولو عن طريق الأخريات.

في بداية شهرته كجراح تجميل لم يكن متعمدا تلبيس ملامحها لجميلاته لكنه اختيار أول فتاة جاءته لإجراء جراحة تجميل، فبينما هو يمعن النظر في وجهها لتحديد ما يحتاج من إزالة أو إضافة، أمسكت الفتاة بصورة صفية وقالت:

- أريد أن أكون شكل هذه.

وعندما تشاهدون الشفاه المنتفخة، والخدود المستديرة تذكروا "صفية" ورغم ذلك لم تكن واحدة منهن "صفية".. الطبطبة على الظهر، اللمعة في العينين، حرارة شفتيها على باطن كفه، مما يجعله يهمس لها إذا التقيا في مناسبة عائلية

- إنت لازم ساحرة لي.

وإذا آمنا بالسحر فإننا لن نحتار أو نتساءل لماذا يصدقها؟! وهي التي ترفض الزواج منه، وكيف يوقن أن البنات فعلا بناته؟!. وإذا كنتم لا تؤمنون مثلي بالسحر فهناك إجابة من ثلاث احتمالات:

إن قلبه يصدق صفية.
إنها رغبة في أن يكون له ظل على الأرض.
إنه ككل الرجال مغفل كبير.

لكنها ظلت محتفظة بصلابة رأسها حتى النهاية. لم يكن أحد بقادر على إثنائها عن قرار اتخذته، حتى أنها رفضت بعد أن تأكدت إصابتها بالسرطان أن يتم استئصال صدرها الأيسر:

- يمكن أن ينتشر الورم في جسمك كله.

- كله مكتوب.

تحملت ألمها، رفضت العلاج الكيمائي، وليلة موتها استندت على كتف واحدة من بناتها. استحمت في النهر، هذه الليلة كان الهواء لطيفا والقمر منيرا، لكن أحدا لم يتلصص عليها وهي تستحم، فقد كانت فروع شجرة الصفصاف تنوح أكثر من المعتاد، كما كان الشباب مشغولين بالسهر في دار إبراهيم أبو مسلم، يشاهدون

فيلم حمام "الملاطيلي" لشمس البارودي من جهاز الفيديو الذي عاد به من العراق.

ارتدت كفنها وضفرت شعرها ونامت في الحجرة المغطاة بورق الحائط المليء بعصافير الجنة، وعندما اقتربت منها ونظرت في عينيها البلوريتين، توقعت أن أرى الصورة التي أوصف بها، وتتردد على الشفاه حتى صدقتها وصرت أخاف النظر في عين من ألقاه، بحثت عن وجهي الصخري الكالح ، عن العين المطموسة في وجهي، والعين الحية في قفاي، عن رأسي التي لو صبت عليها جميع البحار والأنهار ما وقعت منها قطرة على الأرض، عن أجنحتي الأربعة آلاف، عن العيون والألسن التي تملأ جسدي وتجعلني أتخفى في آلاف الأشكال حتى لا أرى حقيقتي التي أخشاها وأهرب منها. في عينيها انمحت هذه الصور، ورأيتني طائرا أخضر مستكينا، منكمشا على نفسه، ولا أبالغ إذا قلت مكسور الجناح، فأدركت أنها تتوق لي، وأنها لا تهابني بل تشفق على.

دفنت "صفية" في حديقة المسجد الذي بناه "يحيى" على النيل مباشرة، ومازال قبرها مجاورا لمكتبة الجامع.

وربما يكون هذا حدث لواحد من الأسباب الثلاثة:

أن عين النساء المخصصة لعائلتها كانت قد استقبلت زائرة منذ أقل من أسبوعين بما يمنع فتحها قبل ستة أشهر.

أن "يحيي" أراد أن تدفن في أرضه، وهي التي رفضت أن تعيش في بيته.

أن "صفية" من أولياء الله الصالحين.

ويبدو أن أهالي البلدة وخاصة النساء يرجحون الاحتمال الأخير، ويتهامسون بأن أمنيتها تحققت وهي التي كانت تكره الذهاب للمقابر وتقول إنها مزدحمة وخانقة.. يا سلام لو الواحدة تدفن في الوسع والبراح.

ورغم دعوة أعضاء جماعة "أنصار السنة" أهالي البلدة إلى مقاطعة هذا الجامع، فإن البلدة هجرته قليلا، وعادت إليه لمشاهدة موكيته الأخضر، والحصول على جوائز مسابقات حفظ القرآن الكريم، ولا يخلو الأمر من امرأة أو شابة توقد شمعة وتضعها على القبر الذي نمت على شاهده شجيرات "الجهنمية" بألوانها البيضاء والحمراء والبنفسجية. وعلي عكس ما تتوقعون وما توقع أهل البلدة لم يظهر عفريت لصفية أو حتى شبح يجذب الرجال إلى قاع النهر الذي تحب، فصفية لم تكن بحاجة إلى الطواف ليلا فبعد تسعة أشهر من وفاتها، استقبلت

البلدة عددا كبيرا من الصفيات واللاتي ولدتهن أمهاتهن بعد أن استحممن بماء غسلها.

❖

# الفصل التاسع

يأتيني في مساءاتي بعد أن تسكن الأحياء، ألتقط خشخشة أقدامه، أشم رائحته، ليست رائحة الولد الصغير الذي كنت ألقمه صدري، وتختلط رائحتنا، ولا الولد الذي يستحي من عرقه، أو رغبته في ملابسه الداخلية وأنا أبتسم: ابنك كبر.

كانت تلك الرائحة التي صفعت وجهي، وهم يفتحون الصندوق، ويحاولون إبعادي عنه، يخرس لساني بينما تصرخ خلاياي، وتجثم الحسرة على روحي فلا أستطيع حراكا، يتسرب دمي قطرة.. قطرة، ويحتل الحزن أوردتي.. جسده ممدد بملابسه، ورائحة الدم الصدئة تنبعث من رقبته التي يتخثر عليها الدم ويمنع مزيدا منه، وبجوار ذراعه الأيمن رأسه وحيدا، وعيناه مسدلتان لا تريدان أن ترى حاله، والغدر الذي أطار رأسه، وأبقى له وجها اختلطت تفاصيله، فلا تتبين منه غير الوجع والأنين.

سأظل أنا أسأل: لماذا؟ وهل كان يمكنني منعه من السفر؟

– فرصة يا ماما إني أغطي حدث مهم بالشكل ده. المنطقة بتتغير، وكنا فاكرين أكتوبر آخر الحروب، صدام بيحمي العرب من المد الثوري الإسلامي.

تتدخل راوية – المد الإسلامي مش هيوقفه شيء.

– يا ماما أنا مش رايح للحرب، المراسلين مكانهم في الصفوف الخلفية.

لم أسأله ساعتها :ما علاقتك أنت بالحروب ؟ وأنت الذي تكتب عن الرحلات والسياحة وتسافر لتكتب عن عجائب البلاد.. جزر المالديف المرجانية، هاواي بلاد الرمال البيضاء، جزر سنتوسافي، سيشل، جالابجوس.. ومن كل بلد ترسل لي صورا ..أسماك الببغاء، الدرافيل.

– متقلقيش، هأعود.

وتعود....

تأتيني خطواته، أشعر بها، ومن بابي الموارب، يدخل هيكله حاملا رأسه على يده، فلا أفزع، وهل تخاف أم من ابنها؟!.. آخذه من يده، وأربت على عظامه الشاحبة يمد لي يده برأسه، أضعها في حجري، وأقبل أنامله الباردة، ينهمر حزني، يتساقط وجعي، فتنبت أصابعك، يداك، ذراعاك،

كتفك، وتعود يا صغيري لي، كما كنت أجففك قبل أن تذهب إلى المدرسة، قبل أن تستحي مني وترفض أن أحممك، لكن دمك المتخثر يعود على رقبتك، وتشير إلى رأسك المقطوع، فأربت عليها وأحكي لها حكاياتي القديمة.. هل تذكر الفأر الذي قال لصاحبه:

"إن من الحيلة أن تذهب أنت أيها الظبي، حتى تكون في طريق القانص، فتربض كأنك جريح مثبت، ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك وأتبعه فأكون قريبا منه؛ فإني أرجو، لو نظر إليك، أن يضع ما معه من قوسه ونشابه ويترك السلحفاة ويسعى إليك؛ فإذا هو دنا منك ففر منه متظالعا حتى لا ينقطع طمعه فيك، وأمكنه مرارا حتى يدنو إليك، ثم امدد به على هذا النحو ما استطعت؛ فإني أرجو ألا ينصرف إلا وقد قطعت الحبل عن السلحفاة وخلصتها. ففعل الظبي ذلك هو والغراب، فأتبعه القانص طويلا ثم انصرف وقد قطع الجرذ وثاق السلحفاة، ونجون جميعا. فلما رأى ذلك القانص ورأى حباله مقطوعة، وفكر في أمر الظبي المتظالع، والغراب الواقع عليه كأنه يأكل منه وليس يأكل، وتقريض حباله قبل ذلك عن الظبي. فاستوحش وقال: إن هذه إلا أرض سحرة أو جن. فانصرف مذعورا موليا لا يلتمس شيئا ولا يلتفت إليه. واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة إلى عرائشهن آمنات.

وأقرأ عليك قول الفيلسوف للملك:

فإذا كان هذا الخلق على صغره، وضعفه قد قدر على التخلص من مرابط التهلكة، مرة بعد أخرى بمودته، وخلوصها وثبات قلبه عليها، واستمتاعه مع أصحابه، فالإنسان الذي قد أعطي العقل والفهم وأُلهم الخير والشر، ومنح التمييز والمعرفة أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد.

فيعود شعرك الجعد وفتحات رأسك الواضحة، وتفتح عينيك وأضع رأسك على جسدك، تقبل يدي، وأضمك إلى صدري الجاف، فأشعر بدبيب اللبن يسري في عروقي، تحيطك عيناي ، ترقصان حولك. تحكي لي عما لم تكتب في خطاباتك، وأظل أستمع إليك، ويمتد الليل بيننا، أعوض أيام غربتك، وقبل أن ينتشر ضوء الفجر، تنبهني لموعدك، لا أريدك أن ترحل، لكنك ستعود، وعل ى ضو ء شمعتي أراك، ومع ازدياد الضوء تتلاش ى حيويتك، وتتيبس أطرافك فأبكي ، لكنك تربت على كتفي، وأشعر بك تشفق على أم عجوز شاب شعرها، تفتح باب الشرفة وتخرج، فأسرع خلفك ، ألمحك على الطريق ، نفس الطريق وقد اختفت رأسك وانثنى ذراعك، وأينما تحط قدمك، تشيع في الأرض الخضرة، وتنبت بين الشقوق ورود شقائق النعمان الحمراء. وعندما تأتي أختك لتوقظني تسألني أمي ما هذه الرائحة؟

كنت أحتاج إليه ولم يخذلني.. جاء، ربما متأخرا شهرا أو اثنين، لكن في حدود الأمان وقبل أن أقلق وأتربص بنفسي، وتسألني الشغالات عن

حالي، وهل انقطعت الدورة الشهرية أم لا؟ وإن كان التساؤل في العيون لم تنطق به الشفاه. جاء والأوفق أنه جاء ولدا. طوال حياتي كنت أتمنى أن تكون لي بنت أعلمها ما لم أتعلمه، وترتدي ما فصلته في أحلامي من فساتين.. لكني دعوت في أعماقي وأنا أتوحم ولا يثبت في معدتي شيء، أو ربما أمنت على دعاء "فاطمة":

– يا رب ولد.

وعندما بشرتني "رحيل" وهي تنظر إلى بطني المستطيل المرتفع، فرحت. هل كان ذلك حقيقيا أم أن أمنياتي منذ دخلت السرايا أصبحت مصاغة بطابعها الرصين، الحامي لكل ما يتبقى في الذاكرة من ماض. وربما أصبحت أستكين لأرواح أصحابها، أصواتهم، خطواتهم. في الليل تزداد حركتهم، يشغلون كل الغرف في الدور الأرضي، أسمع هسيسهم، أتفاعل معهم، يزعجني نحيب أحزانهم، ويهدهد روحي فرحهم.

في أيامي الأخيرة يغيب عن موعده، أشتاق لقدومه أخرج إلى شرفتي، أراه على الطريق، يلف حول السرايا، لكنه لا يدخلها، يذهب ويجيء مهموما.

أناديه فلا يسمعني ويظل يدور حتى تشرق الشمس، فيعود من حيث أتى ما الذي يفزعه، سأذهب إليه، أفتح سحارتي، أخرج وريقاتي الصغيرة، أعد قائمة الطعام الذي يحب، ولا أنسى "فؤاد" ربما كان غاضبا مني وأوصى

"منير" أن يبلغني، أجهز بيدي كل الأطعمة.. ماكرونة بالباشمل، شوربة لسان العصفور، صينية رقاق، دجاج بالصلصة، مسقعة...

قاربت الشمس على الغروب، وعليَّ أن أعد هذه الأصناف، في أي يوم نحن ؟ لماذا لا تنتبه "راوية" لشئوني؟ أين "النتيجة"؟ أشعر أنه يوم الخميس، لقد تأخرت.

هل اشترت"فاطمة" الخضروات؟ لم تعد تزرعها، الشراء أوفر، لن تكف عن ترديد ذلك، لكنهم لن يتحملوا الطعم الماسخ للخضار الذي نشتريه من السوق، فأين ذهبت "فاطمة"؟

أستعد قبل "العزومة" بليلة، أجهز عجين الخبز البيتي، هاهو رغيف الخميرة

يجعل خميرتك سكّرك وكل من داقك يشكرك.
ياعجين لوف لوف زي مالا فت النعجه ع الخروف
ياعجين لوف لوف زي مالافت الحنه ع الكفوف
ياعالم ما فيه.. إظهر ما فيه
من عفيشه ومن نفيشه وبركتِك تظهر فيه ياست نفيسه

واحدة من البنات تكمل العجن، لا تنسي فص الثوم في العجين لامتصاص الحموضة، استريه برشة دقيق على وجهه، غطيه بهذه القماشة البيضاء حتى الصباح.

الدقة الموجودة لدينا لا تكفي، أحمص السمسم، الكمون، الكسبرة، الفول السوداني، أطحنهم، أضيف الزعتر والنعناع مع قليل من الملح.

تتابعين الجديد من الوصفات:

"تقطع الدجاجة الواحدة أربع قطع، نحتاج إلى خمس دجاجات، تجهز التتبيلة، يخلط زيت الزيتون، وملعقتان عصير ليمون ويقطع قرني فلفل أحمر حار، بصلة مفرومة، ملعقة من الأعشاب العطرية النعناع، الريحان، الملح، البهار، الملح، الفلفل الكمون. ينقع الدجاج ليلة كاملة، في الصباح تكون قد تشربت الخلطة، يلف كل جزء في ورقة الفويل وترص في صينية، وتدخل الفرن."

تضيفين أصنافا جديدة للقائمة:

"البط المنقوع في عصير العنب والمطهي بالبرتقال والزنجبيل والعسل، اللحم المتبل بالزبادي والمضاف له حبات الزيتون وصلصة الطماطم قبل تمام النضج."

"الكسكي المغربي المطهي بالبخار والمسقي بالمرق والزبدة ومزين بالزبيب وجوز الهند والكوسة والجزر والفلفل الأخضر وقطع اللحم المطهية بالكاري."

أرسل "فاطمة" لتشتري علبة مشكل كبيرة جوزية، لديدة، بسبوسة، كنافة، ملبن أحمر بالمكسرات، وكل أنواع الفاكهة الموجودة لدى الفاكهاني ة. وأوصيها

– يا فاطمة متتأخريش عن الضهر، الصواني محتاجه رص.

وبعد أن أنتهي من تجهيز الطعام بمعاونة البنات الصغيرات اللاتي توافدن بعد أن أخبرتهن "فاطمة" أن العزومة اليوم، أقود الموكب والبنات يحملن الطعام على صوان، يتجمع الأولاد حولنا، وأمام قبره وكعادتي أوزع عليهم الأكل، يتجمع الشحاذون وأولياء الله، يمضي الوقت ولا تظهر الذبابة الخضراء التي تبلغني سلامه ورضاه عما أحضرت، تتجمع سحب المساء في عيني، أطلب من فاطمة أن تحمل الأواني وتعود، أستحلفها بالله إن كانت ردت سائلا اليوم

– أبدا يا ستي.

أطلب أن تتركني وحدي

– ياستي الليل هجم وأخاف عليك.

– ما تخافيش أنا معاهم في أمان.

وأعود من نفس الطريق كاسفة البال.

أسابيع، شهور، حتى رأيته للمرة الأولى على شاشة التلفزيون، في نشرة الأخبار وجنود يسحلونه على الأرض، ويشدونه من قدميه، والرعب يأكل وجهه، وأنا أصرخ فيهم: اتركوه، فيمضون بعيدا دون اكتراث، أتابع كل النشرات ولا يمر يوم دون أن أراه، منكفئا على آلامه وحيدا، معزولا، لا يريد أن يقترب من السرايا.

ما أراه على الشاشة ليس حلما، أنا أعرف أحلامي التي لا أتوقف فيها عن النزف والولادة، أنتظر أجنتي الشهور التسعة، فتأتي مسدودة الفتحات، كتلة صماء دامية، كوز من اللحم المعجون بالدماء، تتدلي منه أطراف أربعة. أكره البولبييف واللانشون والبسطرمة، وأهرب من أية مائدة توضع عليها هذه الأطباق.

حبيبة: لم تعرفي هذا المعنى إلا عندما جذبتني ورويت لي:

يا جدتي تسحبني أمي إلى غرفتي، الغرفة إضاءتها صفراء لا أدري مصدرها، هواء الغرفة ثقيل به رائحة عفن، عطن مكتوم. تشير أمي لأدراج أربعة، متوجسة أفتح أحدها، تصدمني أجزاء آدمية ملفوفة بشاش أبيض، تأمرني عيناها بفتح الدرج الثاني، نفس اللفة، والرائحة العفنة

تتزايد، تحضر أمي صينية، وتبدأ في تخريط البصل وتقطيع الطماطم، ترمي لي بالبطاطس، أقشرها، أصرخ طوال الوقت، وأمي لا شيء يوقفها، أسرعي كي نجهز الغداء، يمتلئ فمي بما في معدتي، تمسكني من ياقتي تمنعني من التخلص من عفني، تنهرني، تفتح الدرج الثالث، دجاجة مذبوحة ومنتوفة الريش، تأخذ في تقطيعها، أتوسل إليها أن تتركني أخرج من الغرفة، ترفض، وتشير إلى سلكين ممتدين، أحدهما أبيض مغبر والآخر أحمر، تقيد يدي بالسلك، وتجلس إلى جواري ورائحة العفن تزداد، تمتد بساطورها اللامع إلى رقبتي، وتنفسها المنتظم يتصاعد...

فسري لي يا جدتي.

يا حبيبتي حلم واحد جاء إليك، جعلك لا تأكلين الدجاج، فأي حلم جعلك تهربين؟ وأنا التي أقعدتني أحلامي ومحاولات تفسيرها عن التحرك للأمام أو الانتباه لما حولي.

تتجمع أجنتي على النهر، تلتف حول فتاة أعرفها ولا أذكرها، أحس حركتها أكثر مما أراها، كالراقصات اللاتي ترسمينهن، تسير على الماء، وهم يتبعونها، تصيح بي، أراني غير منتبهة، أحاول إيقاظي من غفلتي داخل حلمي فلا أستيقظ، بصرها يمتد بعيدا ولا تشعر بما حولها، هي لن تستيقظ أعرف هذا. يزداد هدوء الماء، ويتحول إلى سطح لوح زجاج هش يمتد إلى

الأبد، يتشقق اللوح الزجاجي تحت خطوات الصغار، يتكسر، يلتهم الماء أقدامهم البضة.

تلتفت السيدة التي تجلس في الشرفة، يقترب وجهها مني، لماذا تتطابق ملامحنا؟ من منا في الحلم ومن يشاهده؟ يستغيث الأطفال، تشير البنت التي أعرفها ولا أذكرها إلى ضفيرتي، التفتت واحدة منا ومدت ضفيرتها.

يتسلق الصغار الضفيرة الممتدة من رأسك إلى الأرض، يقفون في طابور لا ترينه، يحجبه عنك أرض شرفتك المنبسطة في العراء، تشعرين بتسلقهم من الثقل الماثل في ضفيرتك. وفي الأجواء يتردد زئير أسد ليس من هذه الأنحاء. وتظلين تنتظرين عاما خلف عام لكنهم لا يصعدون، بينما يخف ثقل ضفيرتك، وتستطيعين جذب طرفها الآخر المشبع بالدم. فهل تملكين جرأة أن تلفيها حول عنقك؟ أو حتى على الأقل تتسلقينها، وتعرفي ما الذي يحدث في الأسفل حيث لا ترين؟ وأنت التي سعيت للمعرفة بضوء شمعة من شحم يدها، واكتفيت بالتساؤل وشجرة صفصاف جديدة تنمو أمام شرفتك وتلملم أطرافها كلما استطالت.. أي سر تخفيه أشجار الصفصاف فتلملم شعورها الدقيقة وورقاتها اللينة الطرية المنمنمة والصغيرة، وتنكفئ دائما منحنية على الماء أي حنين يجذبها للماء ؟! هل كانت يوما عروسا من النهر، وأغراها البر ثم صدمتها حماقاته، فجلست على الشاطئ تبكي مآلها، وتحن إلى أصلها، وتستكين إلى حواف الماء، أم أنها مثقلة

بحكايات الذين يسندون ظهرهم إليها، ولم يتحمل طبعها الرقيق وأوراقها اللدنة عذاباتهم. الإجابة التي أراوغ في معرفتها، لا تتطلب مني أكثر من نظرة إلى حيث تمتد جذور الصفصاف داخل بيتي.

من منا ينقذ من؟

هل يجب عليَّ أن أعترف بأن ما ظللت أجمعه لك، هو الذي جعلك تهربين.

سنوات وأنا أجمع لك أشياء خاصة حميمة، فنجان قهوة، سوار، زجاجة عطر، منديل مشغول عليه اسمي بخط الثلث، صورة لي، مسبحة حباتها من الكهرمان الأحمر و رؤوسه ا محاطة بنقوش من الفضة، مفارش من الدانتيلا، الجرائد والمجلات التي تركتها لي "الياصابات"، أشياء اختمرت برائحتي، أشياء تصحبك في رحلتك وتسندك، وتحكين عنها لصديقاتك، تسند ظهرك وتقوي جذورك بالأرض، ويمكنك أن تضيفي إليها وتهدينها إلى ابنتك وحفيدتك.

فإذا بك في خطابك الأخير تقولين: انظري حولك يا جدتي تعرفين لماذا سافرت، وانتويت ما فعلت، أعيدي الحكاية يا جدة، وتأملي فيها الممالك التي تهدم، والقلاع التي تسقط، والسجون والوحشة والوحدة كلها عناصر لقصة ختامها ما فعلت.

أحاول تذكر الحكاية.. لا أجد غير صوت أبي يناديني: ابن بيتا.

أسرع إليه، أجري بين أعواد الذرة، الظلمة الغامقة الخضرة تحاصرني، لزوجة طحلب استقر على بركة آسنة، وامتص ماءها، ويقاوم فناءه بالتفتت إلى آلاف القطع الصغيرة المترامية الأطراف التي تلتصق بوجهي، أنزعها، تجرحني أرميها بعيدا، فإذا هى ترتد أذرعا مستطيلة من أعواد الذرة الوبرية ذات الأطراف الحادة، وريقات الذرة طويلة ملتوية كحية تطاردني طوال الوقت، ولا ترضى بأقل من موتي، فيفرز الخط الأصفر الوميض الفاصل بين نصفيها سائلا مُرا، ينفذ من مسامي، يقبض شراييني، فأكاد أسقط والأوراق الخضراء تزداد كثافة وبرها، أجري ويطاردني صوت حريق يلهث خلفي، ويشعله احتكاكات الهواء بعيدان الذرة، وطائر لا أراه يصيح: قاق، قاق، والأرض الممتلئة بالبصل والمغطاة بالقش تنتظرني بعيدا، حيث يجرب أبي حظه في التجارة وتخزين البصل للمرة الأخيرة. مكدودة ومجروحة أصل إليه، رغم أن الطريق الأساسي لم يكن به ما يعوق مسيري.

لماذا عبرت من حقل الذرة ؟هل خفت الشمس الحارقة؟ أو ربما أبعدني عن الطريق خوفي من العجوز التي انقلب دقيقها، وتطلب من أية فتاة تمر بها أن تجمع لها الدقيق الواقع على الأرض، وبعد أن تجمعه الفتاة

حفنة، حفنة، وتمتلئ "القفه"، تصرخ العجوز في وجهها: هذا ليس دقيقي، دقيقي أبيض كالفل، وهذا دقيق مترب. ولا تسمح لها بالعبور بل تظل تصيح في وجهها: أريد دقيقي، والعابرة الشابة حائرة حتى يشيب كل شعرها وتسقط مغشيا عليها. وفي كل صباح يجد العابرون عجوزا جديدة تنتظر من تجمع لها دقيقها المسكوب.

بعد عمر أخرج من الأرض إلى الطريق الموازي للنهر. أجده في انتظاري، يمسك أبي بيدي ويشير للجزيرة الممتدة في عمق النهر، يردد:

ابني بيتا. ابني بيتا.

يتمدد الرجل العجوز على الأرض، جلده رقيق، لونه الأبيض صار غامقا، وعروق رأسه الزرقاء نافرة، وشعيرات بيضاء تتناثر في رأسه الذي أحمر جلده من السخونة.

يحتضنه الطمي فيغوص جسده النحيل فيه، وأنا أصرخ: أبي أبي لكني لا أسمع صوتي، فقط صدى صوت أبي يردد.. ابني بيتا.

أتلفت حولي، أضغط بقدمي، الجزيرة طينية هل يمكنها أن تتحمل ضغط البيت؟ أخرج من الجزيرة، وعلى حافتها أشرع في البناء، أكوم التراب من الطرقات، أعجنه، أرفع الجدران، وعندما أنتهي لا أجد لبيتي بابا، فأجلس على عتبته وظهري للداخل، أسند رأسي لحائط، وفي منامي أجلس على

كنبتنا المغطاة بالكليم الأحمر، أتطلع للشمس التي تغيب، تفوتني صلاة العصر، تغيب الشمس أكثر، فتفوتني صلاة المغرب يؤذن لصلاة العشاء فأنوي تعويض ما فاتني، أتهيأ للصلاة، وجهي للقبلة ويدي اليمنى تعلو يدي اليسرى على صدري وبالضبط على "كورنيش" سفرة جلبابي اللبني، أبدأ في قراءة الفاتحة، ينشق الحائط ويقف على يميني عملاق يرتدي سروالا أسود عليه بلوفر صوفي من نفس اللون، ترتفع بداية البلوفر فوق رأسي بكثير، أستعيذ في صلاتي بالله من الشيطان الرجيم، يصعد المارد لأعلى، وتتهاوى الجدران تحت ثقل نور غامر يغشى كل الجهات الأربع، ويمتلئ الكون بسكون، تضطرب له نفسي، وعندما جاء الصباح كانت يد أبي في يد "البيه" يقرآن الفاتحة.

أستيقظ فزعة، تدغدني الأرواح الساكنة في تراب البيت، تتشاجر، تتصايح وتدفع بعضها البعض، يضغط صياحهم على الجدران اللبنية، التي لم تر الشمس بعد، يهتز بيتي ويتردد في نواحيه صدى الأصوات المجتمعة، يهرم بيتي الطفل، يتشقق، يتهاوى، ينصحني أحد السائرين، فأجمع تراب الطرقات، التراب الناعم، أخلطه بالماء، أدعكه تسير فيه حرارتي، يتجانس، أسد الشقوق، أملأ الفراغات، أساوي جدرانه، أرجوهم ألا يستيقظوا، يتلألأ عرقي، أمسحه بكفي وأمسح كفي في الحائط فتنغلق المسام الطينية، وتهدأ الروح في موضع كفي، وكلما عرقت مسدت جدراني بعرقي، حتى بذلت له كل العرق، لكن بيتي المبني من الطوب النيئ

المعجون بخطوات السائرين الأبديين، الذين لا يعودون حين تغرب الشمس إلا لأحزانهم فيغلقون باب القلب، وينسون مفتاحه خوفا من حزن جديد، لا تسكن جدرانه، وتعود دوما تلفظ ما مسدت، والشمس المعلقة أمام واجهته الخلفية تراوغني، لا تريد أن تنزل للنهر، فيطول صيامي، والراديو لا يثبت مؤشره عند أذان المغرب، وتظل المائدة مبسوطة أمامي، لا أقرب طعامها، تمر الساعات، لا ليست ساعات، فالشمس مازالت معلقة، لكن رفة رموشي تخبرني أن شيئا يمر، وإن لم اسمه، أنشغل بانتظاري حتى يغلبني النوم، ربما؟ أقل من رمشتين لكنهما كافيتان لتنزلق الشمس في إحداهما إلى النهر وتعبره للشاطئ الأخر، وفي النصف الثاني من الرمشة الثانية، ينبلج الخيط الأبيض من الأسود، فأستيقظ على صوت الأذان، أصرخ لم أفطر حتى أصوم، فيرد على الشيخ "عبد الجواد": الله أكبر.

وتفتقدين رمضان، كما تفتقدين في الأسابيع الفائتة يوم السبت، وتنزلق عقارب ساعتك عن الساعة الثامنة، ويغيب عنك الشيخ "عبد الباسط عبد الصمد"، ويضيع منك صوته القوي كصهيل حصان بري يأخذك إلى مريم البتول ومحرابها ورزقها الذي يأتيها بين يدها طيبا مباركا، فلا يبدأ أسبوعك أبدا، ويأخذ وقتك خطا مستقيما لا ينتهي، وتفقد الأيام دائريتها، وتنهار عقارب ساعتك، فيؤذيك سمها.

بينما صوت أبي يردد ابني بيتا.

# الفصل العاشر

ليست "حُسنة" وحدها التي تنتظر.

فكل أوقاتي انتظار، أجلس في مكاني المختار، في يدي اللوح المكتوب، وعن شمالي شجرة أوراقها أعمار كل البشر، فإذا قَرُبَ أجل بني آدم يبست ورقته، نزلتُ أقبض روحه وأشطب اسمه من اللوح. الشجرة أوراقها خضراء زاهية، لكن ليست خضرة كل الأوراق واحدة، بعضها تبدو ذابلة صفراء عليلة، وأخرى يانعة، تسري فيها خضرة

الحياة. أما الورقة التي شدت انتباهي دونا عن كل الأوراق فكانت ورقة يابسة بلا روح، أعوام وأنا أراقبها وأحدث نفسي: غدا ستسقط، الآن ستسقط، لكنها في مكانها، بحثت عن صاحبها فوجدتها "لعوض" زوج "راوية"..

لفت انتباهي ذبذبات صوته العالية، السريعة، كأنما يتخلص من عبء دون أن يهتم إن كانت رسالته وصلت أم لا، وبمرور الوقت تصبح ذبذباته رسالة لامبالاة من رجل يستخسر بذل جزء من طاقته للآخرين. طريقة لا تبعث الثقة في صاحبها، هي في الحقيقة تدل على الاستغناء، وعدم الحاجة إلى الناس. وإن كانت تجعل النساء بما فيهن راوية تسألن: لماذا يُعطي العالمَ وجهه الذي لا يحب؟

فتتهامس المسنات: "أصيب أبوه "محمود النحال" بمرض غريب جعل وزنه يتناقص بسرعة كبيرة حتى مات ووزنه لا يزيد عن أربعين كيلو، ولم يكن مر على زواجه ثلاثة شهور، كانت زوجته "سميرة" في أول الحمل، حاولت إجهاضه أخبرت الداية حماتها، اشتعلت الحرائق في بيت النحال، وبعد ها بيومين مات محمود. اتهمها أهله أنها السبب في موته، فكرهوها ومنعوها من الخروج حتى وضعت، وجدته زوجة "النحال" الكبير،

أسمت المولود "عوض"، وطردت أمه دون ميراث ومنعتها من رؤيته".

أما الحكاية التي لن تسمعها "راوية" من أية امرأة فهي: أن الولد اليتيم مرض ذات مساء، بمرض يطلق عليه الأطباء "الجفاف"، وعلاجه يحتاج رعاية وتناول محاليل ملحية، خافت عليه جدته أن يلحق بأبيه، نصحت إحداهن الجدة فوضعوه في قبر، وقالت لها إن الجان قد استبدلوه بابن لهم طمعا في جمال ولدها ويمكن استرداد الوليد الريان بتركه في قبر مهجور ثلاث ساعات قبل وأثناء صلاة الجمعة ومعه ثلاثة أرغفة من خبز القمح الفاخر. ولما عادت النسوة إليه كانت صفرته ورجفته قد اختفتا ، وحلّ محلهما لون أحمر محتقن، سيتحول هذا اللون إلى سمرة ليست من عائلته، ولكنها من سديم روحه التي تاهت بين السماء والأرض، لم تهتم الجدة بهذه الملاحظات كل ما يهمها أن الولد كان جائعا، وبدأ في التهام الطعام الذي قدمته له واعتبرت هذا من علامات تمام الشفاء، ومن فرحتها لم تلحظ حركة عينيه السريعة وما تخفي من خواء مريع.

وسينمو الولد ويكبر دون أن يعرف أحد أن روحه فارقته من سنوات، ولن تكتشف ذلك سوى إحدى عشيقاته، التي ستحاول أن تفديه، وتشاطره روحها، لكن ذلك كان

متأخرا جدا، فالولد كان قد تعود أن يعيش بلا روح، حتى أنه ضربها حينما أقامت زارا كبيرا ترضية لملك الجن الذي سرق روحه من أجل ولده، ومع دقات الزار رضي الملك أن يخاوي ابنه.

ولكن العجيب أن "عوض" لم يتحمل وجود روحه في بدنه دقائق، فانتفض وقذف عشيقته براكية النار، ولطف الله فلم تصبها النار بل جُرح كعبها، فلم تكررها ثانية.

أما الحكاية التي لا يعرفها أحد أبدا، ولا يمكن أن أحكيها فهي أن "عوض" كان يأكل نفسه، وأن أعضاءه كانت تنسلخ منها رقائق تنزل مع برازه وبوله، وحتى مع زفير تنفسه، وسوف يفاجأ الطبيب الذي سيرتاب في سبب موته، عندما يشرحه بتقلص أعضائه الداخلية وتحولها إلى حبات ليمون متناثرة منحوتة كما الجبال التي بردتها عوامل التعرية، وكأن سكينا ظلت تكشط من طبقاتها بانتظام على مدار خمسين عاما، وربما يكون عضوه هو الشيء الوحيد الذي نجا من هذا النحت. وليس أمامنا غير احتمالات ثلاثة لتفسير هذا.

الاحتمال الأول: أن عضوه لم يتأثر لوقوعه خارج جوفه.

الاحتمال الثاني: أن عضوه يعوض ما يفقده من أنسجة النسوة اللاتي يعاشرهن.

وهناك شائعة تقول إن النساء اللاتي عاشرهن على كثرتهن أصيبن بقرحة في أرحامهن، ويؤيد هذا الاحتمال عدم استمرار علاقته الجنسية مع أي واحدة أكثر من شهور قليلة.

الاحتمال الثالث: أن "عوض" كان يدرك تماما أهمية عضوه فبادله سرا بروحه.

وأرجح أنا هذا الاحتمال.. فهو كرجل يمكنه أن يتنازل عن روحه ويبيعها حتى للشيطان، ولكن لا يمكن مهما كان كارها لنفسه وللآخرين أن يتنازل عن عضوه الذي يحدد وضعه وترتيبه الفحولي وتسيده.

وحتما فإن "عوض" كان ابنا بارا لثقافته العضوية.

ولأن "عوض" رغم كل صفاته كان لديه شيء من الحظ بالمفاهيم الدارجة التي تعتبر الخير "خيري أنا"، والشر "مصيبتي أنا"، فقد كانت حيواناتـه المنوية هي الأخرى منحوتة، مقروضة، ولذا لم ينجب سوى "حبيبة" وإلا لكانت لديه قبيلة من الأبناء غير الشرعيين يقاسمون حبيبة ميراثها. ونتيجة لذلك كان على حبيبة أن تتحمل وحدها إرثه ووزره وخطاياه. ورغم أهمية "حبيبة" لنفي أي شائعة تتعلق بقدرته الجنسية، رغم هذا كان يعتبر حبيبة خطيئته وهو الذي كان يستخسر أن يلقي ظله على الأرض ولا يريد أن يترك للعالم شيئا.

ولو كان الأمر بيده لما أدخل شيئا في جوفه، لكنه كان نهما لشرب السوائل فلا يمكنك أن تراه دون أن يكون بيده كوب ماء أو شاي أو عصير فاكهة، وكان يضع إلى جوار سريره دورقا كبيرا مليئا بشراب الليمون، ليروي عطشه الدائم حتى أثناء نومه، وكلما وقع ما يوتره شرب أكثر، وكان هناك الكثير الذي يوتره.

لكن شيئا لم يوتره مثلما حدث حين حضر افتتاح معرضها الأول، فوجئ بأن جميع اللوحات المعلقة في قاعة العرض لرجال عراة في أوضاع مختلفة. لم يكن منبع الصدمة الأجساد العارية، لكنها المرة الأولى التي يرى فيها رجالا عراة يستعرضون عريهم وطبقة رقراقة من الخجل تكسو وجوههم، حتى العري في التماثيل القديمة كان عريا لاستعراض جمال الجسد وتنسيق عضلاته، ولكن عراة ابنته أجسادهم مريضة كالحة مترهلة. وما أزعجه أكثر نظرة الخواء التي تملأ عيونهم والتي ذكرته بنظرة يراها في المرآة وهو يحلق ذقنه كل صباح. لم يجرؤ أن يسألها، لكنه انتبه لوجودها وكيف تنظر إليه، أجهدته في الأيام القليلة التي تقيمها في السرايا يشعر أنه مراقب تحت عدسة ميكروسكوب .لا يمكن لابنة أن تفعل ذلك بأبيها، كان آخر ما يتمنى أن يترك على الأرض

لوحة لجسده عاريا، عريه فضيحة، أكبر حتى من فضيحة أن تعود إليهم وعلى يدها طفلة مستنسخة منها.

يخاف "عوض" من عريه وعري الآخرين، حتى الجنس لم يكن بالنسبة له أكثر من طبق مشمش فارغ، وامرأة تخرج من فمها النواة الأخيرة وتمضغ سؤالها مختلطا بلحم المشمش:

– خلصَّت..؟

وصار هذا هو الوضع الأنسب له، فمع اندماج السيدة في إدخال حبات المشمش في فتحتها العلوية يكون هو مخترقا فتحتها السفلية.

لكن ماذا يحدث في الأيام التي لا يوجد فيها مشمش وهي كثيرة؟ أحيانا يفي البلح الرطب بالغرض، ولكن لا شيء  يعدل المشمش. يركز مع نفسه فلا يعطي ولا يأخذ، وتهرع المرأة لتغتسل ويسقط بين فخديها سائله، تتخلص منه، ولا يغادر الغرفة المعتمة دون أن يتأكد من ذلك، كالشبح لا يبقى له أثر.

وقد قلق بعد زواجه من "راوية" ومحاولتها التقرب منه، وتلقائية استجابتها له. أخافته حرارة جسدها، وأطلقت توتره وأفقدته سكونه الداخلي وقدرته على التحكم في نفسه، فأصبح يتجنبها.

التباعد الجنسي لعوض لاقى قبولا من "راوية" التي كانت جزيرتها هي الأخرى تزداد عزلة بقدر ما تنم و أعمالها في الخارج، ففي لقاءاتهم الأخيرة كان عوض سريع القذف ولم يكن يلتقي معها أبدا، وهي تتألم من أقل احتكاك، صارت معاناتها واستحمامها في الشتاء للصلاة لا تستحق حتى أنها كانت تتساءل أي متعة حصلت عليها كي تتطهر منها. وفاجأه ا في آخر لقاء لهما بخروج بعض الديدان البيضاء الصغيرة من فرجها، مما أرعبها منه ومن نفسها، ولم تجرؤ على محاولة تكرار التجربة لمعرفة من منهما يتعفن من الداخل أكثر. لكن الشيوخ الذين تتبعهم كانوا يهددونها بالرب والقانون. فماذا تريد المرأة من الرجل؟ وكانت تحفظ مقولات الشيخ كشك في آداب الجماع وترددها حين يوسوس لها الشيطان: " لقد بنيت العلاقة بين الرجل والمرأة على خمس:

- الجماع ابتغاء الولد وليس المتعة.

– عدم التعري لأن معكم من يستحونكم من الملائكة.

- يبيح الإسلام الرفث وهو الكلام الذي يزيد الرغبة الجنسية".

ورغم إيمان "راوية" التام وغير المنقوص فإن الرفث هو ما لم تستطع أن تنطق به أبدا وما لم تشعر بالرغبة فيه.

وعندما قرأت فيما بعد في مجلة "طبيبك الخاص" عن طريقة لعلاج القذف تسمي "ماسترز وجونسون" وتتلخص كما وصفتها المجلة في القبض على العضو الذكري بأصابع اليد والضغط لفترة حتى يزول الإحساس باقتراب القذف. جعلتها هذه الطريقة تضحك من قلبها حتى دمعت عيناها وتشكر الله أن العمر قد مر وعفاها من مثل هذه التجربة.

نادرا ما أشفق على أحد لكن راوية التي لا يمكنها أن تسمعني أو أن أحدثها تذوي ورقتها هذه الأيام سريعا، وتنتشر على سطحها بقع صفراء تأكل خضارها.

ترغب في أن تنام، كأنها مكتئبة، لكنها تعاني ما هو أبعد من الاكتئاب، إنها تتجاهل ما تشعر به، رغم دراستها لعلم النفس إلا أنها تعتقد أن كل هذه المقولات عن الشك والحيرة والسلبية وقلة السيطرة والإرهاق هي دراسات أجراها علماء ملحدون كي تبعد الإنسان عن ربه.

تتمنى أن تتلاشى، تختفي بعيدا هناك حيث لا يعرفها أحد، بعيدا عن "عوض" وانكماشه وانكفائه على ذاته، هذا إن كان قد بقى له ذات، بعيدا عن عيني أمها التي

تمتلك ما يبدو أنه حكمة أبدية، بعيدا حتى عن عيون الله التي يعذبها مراقبته لها.

ولكن وبأسرع ما يمكن ترتدي وجه التسليم، وتخاصم نفسها حين تهمس لها: "أيتها الحمقاء هل الرب ليس لديه سواك فلا ترف عينه عنك، أم أنك اتخذت من خشيته الدائمة، وإحساسك الدائم بالمراقبة منه ستارا، توهمين نفسك بأهميتك المفقودة، حيث لا أحد يشعر بك في هذا البيت الكبير، فالله يراقبك دائما وأنت على اتصال دائم به، تصلين، ترتدين خمارا... لكن لماذا كل هذا الخواء. أين دراستك؟ كنت تأخذين الدواء من يد أبيك وترفضينه من يد أمك. ما الذي وتر العلاقة بينكما؟ لماذا لم تكن مثلك الأعلى ورحت بعيدا إلى الحاجة "زينب الغزالي" والأخوات، وافقت على الزواج من عوض لمجرد أنها أبدت اعتراضا. عباءتها واسعة، تخنقك وكنت تريدين عالمك. فأصبحت جزءا من قطيع أكبر، تسخرين من صفية وبناتها، ومن رحيل وتدعين رغبتك في هدايتهن، وأنت تتمنين أن يظلوا في الفئة الضالة.

افتحي الدرج السفلي في دولابك هل ما زلت تقرأين روايات عبير؟ متى اكتشفتها؟ هل مازال الكونت فارسك؟ ماذا أعجبك في "عوض"؟ صمت الكونتات

الذين قرأت عنهم، الجليد الذي يواري بركانا صاخبا، وانتظرت الحمم حتى خمدت.

ما تنفكين ترددين في مجالس الأخوات أنك تحديت أهلك، وأعرضت عن جاهليتهم وصبرت، وكنت أول من ارتدت الخمار في الناحية، وبفضل الله لا توجد فتاة إلا وترتدي الخمار وأول خمار ترتديه يكون هدية من محلاتي، تشتريه وتأخذ معه خمار هديه. فكيف ستواجهين ما تسميه الفضيحة؟ وأنت هناك بعيدا بعيدا في أعماقك تغبطين ابنتك. وتحملقين في أشرعتها المفرودة وتتمنين استعارتها ولو دقائق..."

تتغاضى عن هذا الصوت، تخنقه.. وتخلق صوتها الخاص الذي يردد قصة نسجتها من الحقيقة والخيال، عبر سنوات طويلة عاشت بها ومعها:

ولدت في اليوم الثامن، بعد أن تم كل شيء، أصبحت أمي سيدة البيت، وأكد مكانتها الداخلية ولدان، قرت بهما عينا أبي، ربما يقول قائل ليس لك حق فيما تقولين، وكفاك عقوقا لأمك حتى في خاطرك، ومن أدراك أنك لم تكوني الريحانة التي ينتظرها أبوك؟

يبدو هذا للبعض حقيقيا ولكن مولدي في ذلك الوقت، هو الذي هز اكتمال العالم وجعل أمي ترجئ غزوها الخارجي، وهي التي جربت قبل شهر من مولدي

استقبال السيدات لها في المنصورة بعين الحسد، وشهدت لها الخالة "الياصابات" بالنجاح، وكأنها ربيبة السرايات بكمال زينتها وحلو حديثها. وكانت الست حُسنة تهيئ نفسها لجلسات الخميس بالفساتين الجديدة، والجلوس إلى جوار أبي وهو يقرأ لها بصوت عال أبياتا من الشعر القديم، أو تتصفح المجلات لتكون أول من يحدثهن عن الجديد.

وتصبح حكاية اكتشاف حملها بي إحدى نوادرها التي تحكيها:"بينما السيارة بسائقها تستعد لنقلي لزيارة أمينة هانم المليجي، وإذا بي أشعر بدوار وكدت أسقط على الأرض، لكن فؤاد بك حملني بين ذراعيه، وطلب الدكتور ناجي وكانت المفاجأة التي لم انتظرها أني حامل، وطبعا اعتذر فؤاد لأمينة هانم، وطلب مني الدكتور ناجي عدم الحركة طوال فترة الحمل، فتغيبت مدة عن الجلسات والصحبة الحلوة" .

لا تمل أمي ترديد هذه الحكاية، وتعدل وتبدل فيها كما تشاء. و للإخبارية بقية، لا تسمعها الهوانم بل تكتفي بترديدها أمام صفية والياصابات ورحيل.

- طبعا كنت أنا موضوع الحديث في بيت بنت المليجي، والحسد والعين، الأرنبة، طبعا فلاحة، لكن أنا عرفتهم مقامي.

لا تمل حُسنة ترديد الحكاية.

ولا تمل راوية من نسج قصتها والقذف بها ككرة الثلج.. لا يكفي أن تقدم لي تفاحة، أو تنصحني بشرب كوب من الماء صباحا على الريق للتخلص من غثيان الحمل. ماذا عن الماء الفاتر وملعقتي الخل الأبيض للتخلص من الحيوانات المنوية، وبقايا رجل لا يعطيك نفسه. بل يتهمك بأنك قليلة الأدب، ويشك في تربية بنت الأصول.

كيف أهملتني وتركتني لهذا الموقف المحرج؟ امرأة قليلة الأدب مع زوجها.

وبعد ولادة "حبيبة" وقص الزائد من جسدي، أصبح العالم هادئا مستكينا إلا من ألم الاحتكاك، ويبدو أن الآخر كان مستريحا وراضيا، وفي ماذا تطمع المرأة أكثر من رضا زوجها..؟

في هذه اللحظة وهي جالسة تراقب غروب الشمس التي تختفي رويدا رويدا خلف الأشجار الكثيفة البعيدة، التي تتبدى كما حصن يخفي خلفه كل الأسرار، والشمس تتماوج ألوانها بين الأحمر والبرتقالي والأصفر، ويلهب وجهها سياط الوقت وعقارب الساعة، وكلما غاب جزء من قرصها، وتطاولت قمم الأشجار لتصل إلى حافته المتوهجة، انتشرت على الأرض عتمة خفيفة تغطي الزراعات الممتدة، تتكاثف العتمة لتجمع ندف الليل.

في هذه اللحظة تمنت "راوية" أن تكون زوجة صياد تفرش معه الشبكة أو تجدف بالمجداف بينما يرمي الشبكة ويفردها.

يكمل الصياد دورته في خط بيضاوي وفي أصابعه يلمع وميض سيجارة وصوت رميته للشبكة يشق سكون النهر ويحفز إيقاع موجاته، يدق بقدميه على باطن القارب، فتنتقل دقاته وأحاسيسه إلى الماء ومنها إلى السمك فيتجمع في شبكته استجابة لغواية النقرات المنبعثة من طبلته وقدميه.

يمر به قارب مسرع يجمع صيادوه السمك على أنغام أغاني سريعة ولا يمكن أن نجزم إذا كان هذا هو السبب فيما تردده حُسنة، وهي تنزع الشوك من لحم السمك البلطي، وتضعه في  فمها بدون مزاج

– طعم السمك تغير.

❖

# الفصل الحادي عشر

تعطيني ريشتها، تفتح علبة الألوان، تفرد اللوحة البيضاء، تعلقها على مسند وتمد يدها بالفرشاة – ارسمي يا جدتي.

استنكر طلبها، لم يكن لي أية كراسة رسم، هذه الأشياء لم تكن في الكتاب، كان لنا لوح ولكن لتسميع وكتابة آيات القرآن الكريم. كراسات الرسم ظهرت بعدي بسنوات.

– ارسمي لوحتك الخاصة، ارسمي ما تحلمين به.

ليس هذا بالأم ر اليسير. في أيامي هذه تختلط الذكريات بالأحلام بالمخاوف ويحتاج فض الاشتباك بينهم إلى مهارة وحذق لم يعودا لي.

منذ ليلتي الأولى تخايلني تموجات ألوانه.. تغير كل شيء، لكنه بقي مزهوا، لامعا يملأ السجادة المعلقة في منتصف الجدار القبلي في الصالة الكبيرة، أتحسس ملمسها الحريري، أتعجب للون أرضيتها الأبيض الثلجي الذي يتوارى ليترك للطاووس كل المكان. تجذبني ألوانه أغرق في أزرقها وأحمرها وأصفرها، تختلط الألوان فلا أفصلها عن بعض، يبرق الأخضر والبرتقالي والبنفسجي، تومض آلاف العيون المنتشرة على ذيله، قدرا مسلطا، لا يغفو أبدا ويطلع على كل شيء ، كلما نظرت إليه من زاوية جديدة تغيرت ألوانه.

يتشاءم البعض من وجوده بالبيت؟ من صوته الذي يشبه اسطوانة قديمة مشروخة، فهل حقا كان السبب في دخول إبليس الجنة وخروج آدم منها؟ أم أنه كما قال "منير" مقدس ورمز لكبير الملائكة وإله الشمس "تموز"، لا أتذكر..غير أني تفاءلت به، حين عرفت للمرة الأولى معنى أن أنام قريبة من شخص إلى هذه الدرجة ، أضع يدي على العرق النابض في رقبته ، أجده هادئا مطمئنا، وأنا لا أصدق نفسي، متى تستيقظ الشمس؟ لكنه حين استيقظ مبكرا كما هي عادته دائما قبلني في شفتي وقال: ابقي نائمة، لم تنامي جيدا بالليل وغطاني.

لكنها تصر

– ارسمي ما تشعرين به.

تترك اللوحة البيضاء في غرفتي وتسافر ...

بأي الألوان أبد أ وحياتي بين عالمين ، الأسود والأخضر طَبَعا في الروح صفاتهما، والأزرق جاء متأخرا ليهد ئ من روعي، ألجأ إليه بعيدا عن الصخب الذي يهتشعره كل من يدخل عالما جديدا .. اللون الأسود قوي، صريح، أشتاق إلى حدته وصرامته، أرتديه في أيامي الأخيرة تعويضا عن سيولة الروح وهشاشتها، أرسمه خطوطا، خطا مستقيما يربط بين نقطتين ، بين ميلاد وموت ، ربما كان طريقا. أي الطرق التي مشيت عليها؟! أي درب يؤدي بنا إلى النهايات المحتومة؟ ! ربما النظرة المستقيمة لأبعد من بيت فقير يقوم بعيدا وحيدا في غربة أبدية عن الآخرين، مستكفيا بنفسه.

لم يعد بيتك صار مجرد بيت.. البيت المكون من ثلاث غرف، غرفة للضيوف بها ثلاث كنبات، كل كنبة لها مسندان وبينهما تكاية، ويغطي الكنب كيريتون مطرز: كنبة يغطيها لون "نبيتي" سادة والأخريان مطرزتان بأزهار حمراء، رسمها يشبه لوزات القطن. الحوائط صارت كالحة، ومن أثر اللمبة الوناسة يتصاعد هباب مخروطي الشكل، تتزايد مساحة الغابات المرسومة بفعل الرطوبة، تتآكل القلوب التي حفرها "يحيى"، والحرف الأول من اسم "صفية".

كل شيء في البيت يبدو أصغر مما كان، أضيق، لكن "الوسعاية" التي أمامه مازالت كما هي تحدها المصطبة وتظللها تكعيبة العنب.

الأسود قرين الأرض والظلمة، الليل كافر ، تشكلات الجان، الأسود الجامع لكل الألوان القادر على امتصاص كل ما يقترب منه، حجر المغناطيس الذي أريتني إياه وأنت في المدرسة، تلتقطين به مسامير ودبابيس البيت، البيت الذي كان متماسكا وفجأة تخلخلت روابطه، أم إن هذا حاله منذ زمن؟ فقط كنا ننتظر مغناطيسك، حجرك الأسود، كي نرى التفكك والصدأ الذي يأكل روحنا، ويرتفع صياح أبيك وأمك

– أنتِ السبب ؟

– ايه كان بإيدي؟! ليه ربنا يفضحنا كده ؟

– بنتك هي اللي هتفضحنا.

– سافر وارجع بها، امنعها، أنت أبوها.

– أنت أمها.

حلقة مفرغة واسطوانة تتردد حشرجتها كل مساء، كل صباح.

لكن أحدا لم يسافر إليك ولم يسأل عنك في بعدك النائي، الذي لا أستطيع اتخاذ موقفا منه، فلعل لونك الأسود يجذبني إلى ضفة ما، وأيا كانت ضفة النهر فأنا معك، هاهو أسودك يحفزني لكي أسألك لماذا لم تأخذيني معك

كي أكون بجانبك واكتفيت بالرسائل المتبادلة دون عنوان سوى طابع بريد لمدينة غريبة.

تزداد الفجوة بيني وبين أمك، وبينها وبين أبيك، تزداد الفجوات ويسود اللون الأصفر، الفجوة لا أعرف كيف أرسمها، فجوة لا تعني دائرة، ربما تكون جفوة .. صحراء جرداء واسعة تصرخ فيها فلا يرتد صداك أبعد من أذنك.

الأصفر مقبض، الخنجر الذ ي ينتظر من يغمده ليجهز على علاقتي بأمك، لماذا تبدو مترامية الأطراف ولا سبيل لجمعها؟

كانت تشبهني عيناها، شعرها، وجهها، عدا أنها أكثر بياضا، لم يكن لها هذا الجمال الخاطف، الساحر.

عندما تراها امرأة معي تقول:

– بنتك شبهك خالص.

وأكمل أنا في سري ما لم تقله: فلاحة مثلك.

لم تحقق توقعاتي، درجاتها متوسطة، تحب ما أكره وتكره ما أحب.

الأصفر الشقاق الدائم بيننا وقد تعبت منه، الأصفر مرارة، وعتاب مصلوب على الشفاه، توتر، انتظار لشيء لا أتوقعه، الموافقة على الزواج من رجل لا أستطيع إصدار حكم عليه بعد كل هذه السنوات.. أذكره تماما

حين دخل بصحبة أحد أعمامه، استقبله "فؤاد" في حجرة المكتب، ثم نادى:

– فاطمة! خدي عوض يلعب مع الأولاد.

نفر الولد من يد فاطمة وكأنه فهم أن المطلوب عدم وجوده في الغرفة، أو كأنه تعود على هذا السلوك من الآخرين، لكنه لم يبرح المقعد الذي جلس عليه في الصالة الكبيرة.

عند سقوط الورقة تستخلص منها الشجرة كل المادة المفيدة، ولا يبقى في الورقة إلا الفضلات ذات اللون الأصفر، وعندما يعجز الجذر عن امتصاص الماء وتستمر عملية النتح يفقد النبات الكثير من حرارته، مما يعرضه للتجمد، لذا تتساقط الأوراق تدريجيا، أوراق خطية مدورة، إبرية، بيضاوية، حوافها ملساء، مسننة، متموجة، منشارية. و يبقى مكانها أثر في الساق يسمي "الندبة"، كما الندوب التي تبقى في الروح.. الأصفر جوع، هزال، لون مريض عليل، لون الذهب، فأر يبحث عن كنزه الذي ضيع كنزه، قرص الشمس، ذبول الذؤابة الأخيرة لشمعة موقدة في حجرة ساكنة إلا من سريان دموع امرأة على جسد مسجى، الوشوشة، الهمسات، الشائعات، رنين الصاجات، لمعة "غوايش" لا أشتريها من الموالد، وغيرة لا أريد لك أن تختبريها.

من قال إن إمساك العصا على الدوام ترهق اليد التي تضرب؟.

قرأت يوما: إننا نحتاج إلى أربعة أحضان حب وتعاطف في اليوم من أجل أن نبقى أحياء، ونحتاج إلى ثمان من أجل أن نستمر، ونحتاج إلى اثني عشر حضنا كي ننمو ونتطور، فهل اتسع حضني لأولادي؟

من شرفتي أراهم، يسيرون أكتافهم مثقلة بعذابات أيامهم الطويلة، أتطلع في وجه ابنتي يوجعن ي وجعها الذ ي تعيشه ، ولا تمسكه بيديها ، وتدير وجهها عنه ، عاجزة لكنها لا تسند نفسها ... تفتحين دفتر محاضراتها، تفاجئك وردة مجففة، ويقفز في وجهك قلب مرسوم يخترقه سهم، تميزين من الحرفين الحرف الأول من اسم "راوية"، تفركين الوردة بين أصابعك وتشطبين القلب والحرفين، تتركين رسالتك في دفترها دون أن تسأليها. وعلي مائدة العشاء، تتحدثين بهدوء وأنت تضعين الشوربة في طبق فؤاد

– راوية هتقضي أيام المذاكرة هنا.

– وأيام الامتحان؟

– تروح وترجع في نفس اليوم؟

فعن أي شيء تبحثين الآن؟ عن دموع في عينيك؟ تستدعينها فيصعد إليك خادم البئر بدلو فارغ. هل تلجئين لوضع نقطة واحدة من العسل في عينيك، وتستمتعين باللهيب لثوانٍ؟ لم تعد عيناك تستجيبان للغسيل الطبيعي، عليك بالقطرة، ترطب عينيك، لكن حزنك سيبقى جافا حارقا.

مساكين الرجال الذين لا يبكون، تمتص أجسادهم سمومهم، وأحيانا، ترتد إلينا، ليس صحيحا أنهم بلا دموع. ما الذ ي جعل فؤاد يبكي؟ في المرة التي رأيت فيها دموعه أيقنت أنه يحبني وأن لي مكانا في قلبه، لكن الأمر لم يستمر طويلا فقد مات فؤاد، قبل أن يختبر طعم الدموع على ابنه البكر.

حبيبة هل صحيح أن ابنتك ستكون شبهك تماما؟

ستكون جميلة جدا، أنت فُقت جمال "نور" و"شمس" و"قمر"، هل ستكون جميلة مثلهن أم ستكون جميلة مثل "صفية"؟ أم مثل "حياة"؟ كلهن كنا الأجمل، وأنت جئت لترفعي رأسي، وأتباهى بجمالك، وأتقبل المجاملات – طالعة لجدتها.

أول ما تبادر لذهني وعيناي ترى عبارتك: "أحتاج إليك يا جدتي" اللون الأحمر. قطرات حمراء تفصل بين عالمين، هو دائما اللون الأحمر يطاردنا، اللون الأحمر حياة وموت. الأحمر شره، صرخات، حريق، لهب، شرارة انطلقت من فرن لم تنته صاحبته من الخبيز، طارت الشرارة إلى برج الحمام، وطار الحمام المشتعل وأخذ يتساقط على سطح الم نازل الأخرى المغطاة بالقش والحطب فاشتعلت المنازل الواحد بعد الأخر ، يوم بأكمله احتاجه الحريق كي يخمد، لكن الشرارة التي أصابت "يحيى" و"صفية" احتاجت كل عمرهما ولم تخمد. ينظر لهما الموت ويقول: لا شيء يشبه

الكائن الحي أكثر من النار ، هي كائن متنوع تستطيع أن تكتسي بكل الأشكال سواء منها المفزعة إلى أبعد حدود الفزع، والأليفة إلى أبعد حدود الألفة، وهي وحدها القادرة على كشف معدن الأشياء وروحها.

اللون الأحمر أحلامك وكوابيسي.

لكن ما تكتبينه لي ليس له علاقة بألواني، أو حتى الألوان التي تركتيها لي، ربما هناك خلطة معينة بنسب لا أعرفها، ومن أين لي أن أعرف؟

ترسلين خطابات مليئة بأشياء أجهلها: دي إن ايه، واطسون...

يبدو أنني سأحتاج إلى نظارتي التي أتجاهلها، وأنزل إلى المكتبة، هل ما تقولينه موجود فوق الأرفف الخشبية في المكتبة، في كتب الطب كانوا يقولون: "إن الماء الذي يقدر منه الولد السوي، إذا وقع في رحم المرأة، اختلط بمائها ودمها، فخثر وغلظ، فمخضته الريح حتى يصير كماء الجبن، ثم يصير كاللبن الرائب، ثم تنقسم أعضاؤه لإبان أجله. فإن كان ذكرا فوجهه قبل ظهر أمه، وإن كانت أنثي فوجهها قبالة بطنها، ويداه على وجهه، وذقنه على ركبتيه، مقبض على المشيمة كأنه مصرور في صرة. وهو يتنفس من متنفس شاق عليه. وليس منه عضو إلا كأنه في وثاق؛ فوقه حر البطن وثقله، وتحته ما تحته. منوط قمع سرته إلى مريء بأمعائها، يمص به من طعامها وشرابها. وبذلك يعيش ويحيا. فهو بهذه المنزلة وعلي هذا الحال إلي يوم مولده".

لا يبدو لي هذا الكلام مثل الوصف والصور التي ترسلينها لي. مكتبتنا قديمة، لا جديد فيها، ربما أسأل "يحيى"، سيحب طفلتك، هو يحب كل البنات.

سيكون لك طفلة، غلطة تحتاجين إلى حمايتي لإصلاحها. لا تحملي هما، سوف أجبر أباك على الموافقة على زواجكما، وإذا لم يوافق فليذهب إلى الجحيم سوف نعقد قرانكما، وبعد فترة تعود المياه إلى مجاريها ومهما كان "عوض" طيب ما أن يرى حفيدته حتى يرق قلبه، فقط عرفيني عليه. لكن الأمر لا يستدعي سفرا للخارج، لا أشجعك على الخطأ، سأحتفظ لنفسي بقرصة أذن كبيرة .

مهما عنفتك "راوية" أو "عوض" تحمليهما فأنت مخطئة.

لا يوافق على الزواج بك!! من هذا المجنون؟ ألا يعرف من أنت وعائلتك وما تمتلكين. لا تحزني يا حبيبتي سوف أذهب إليه، اطمئني لن أخذلك أبدا،على الأقل نعقد القرآن ويطلقك. ما هذا يا "حبيبة"؟ هذا يحتاج إلى صفعة، لكني سأحميك من يدي ومن يد "عوض"، ما الذي أعجبك في هذا النذل الذي يهرب بفعلته؟

"حبيبة" هل أنت متأكدة ربما يُهيأ إليك. وهذه الكروت التي تبعثينها لي، تؤكد ما فعلت في لحظة طيش وطفلتك لا تكف عن النمو والحياة تتمدد فيها.

هل مات؟ هل صدمته سيارة، قطار، طائرة ؟

لا أفهم ابنتك. ابنتك ليس لها أب، ابنتك لوحدك، مريم أخرى ومسيحة جديدة.

يا حبيبتي الأمر أهون من أن تختلقي هذه القصة، تجارب وهندسة وراثية، من سيصدقك، هناك قصص أسهل، نمنح الطفلة اسما لأي أب، لكن لا تقولي هذا الكلام، عليك أن تعودي كي نتفاهم ونتخذ ترتيبات، حبيبة لا تعودي للسرايا، عودي إلى شقة "الزمالك"، الشوارع المزدحمة تستوعب ما تقولين.

ولكن حبيبة اعذريني، لا تحلفي، وهذه الأوراق؟ النعجة "دولّي"، النعاج لا أحد يسألها عن شرفها وعرضها وكل ما ادخرته عائلتك لك. لماذا تحكمين على نفسك بهذه القسوة؟ "راوية" لا يمكن أن تتحمل هذه الصدمة، لا تقولي لها ، ابنتي لن تتحمل.

ابنتك!! ماذا ستسمينها؟ لدينا أسماء كثيرة، وشموع عديدة يمكن أن نضيئها، والشمعة الأطول عمرا تكون ابنتك التي لا أدري بأي لون يمكن أن ترسم صورها وهي مازالت مغروسة في رحمك، تستمد وجودها منك، وتتغير أحوالها بين دقيقة وأخرى، كتلة لحمية تشبه ذكر البط، ربما يكون "دارون" مخطئا، فأصل الإنسان قد يكون ذكر البط، ونحن نأكل أسلافنا.

في أسبوعها السادس، أطرافها الصغيرة لم تكتمل لكنها تبدو انسيابية، لم تظهر كل أصابعها، لكن عمودها الفقري مكتمل، فقراته واضحة كم عددها؟ ورأسها كبيرة جدا، أكبر من بقية الجسد، وضلوعها التي لن تجد من يكسرها لها ظاهرة، لم يتخلق لحمها بعد وفمها مضموم وعيناها دائرية، مجرد نتوء، وأنفها صغير.

ما الذي استغربه وأنا أمسك صورها؟ سبق لي أن شاهدت هذا. في كتاب؟.. في السينما؟.. في جريدة ؟

سمح لنا الرجل الميكانيكي بمشاهدة جَنِينُه، نعم جنينه، نزفته الأم مع دمائها المنسابة،على فخديها في شهره الرابع، والرحم الذي ينمو فيه الآن من صنعه، صنعه في خمسة أيام. لم تكن أعضاؤه واضحة، احتاجت إلى منظار مكبر، كي يحدد الأب مكان فتحة الفم، ويقطر له بالقطارة نقط من محلول سكر النبات.

رأيت طفلتك ملفوفة بفوطة خفيفة، كل جسدها عدا الرأس الذي ظهر عليه الشعر كما ظهرت الحواجب والرموش، وبانت تقاطيع وجهها بوضوح، والأصابع في يديها وقدميها، كانت أطرافها الأربعة عبارة عن خيط رفيع جدا أحمر اللون. بدأت تستجيب لأصوات الأم والأب.

الطفلة تنمو أسرع مما تنمو داخل رحم الأم، استخدم الأب مركبات البنسلين ومضادات الفطريات والكراوية وسكر النبات ولبن الأم في تغذيتها

بالقطارة، ومركبات أخرى لم يفصح عنها الأب للأطباء ومازال يرفض رأيهم في نقلها للمستشفى.

لابد وأن يكون الجنين بنتا، كنت أخاف على جنينك، لكنك أحسنت، البنات يحملن سر البقاء.

ماذا أريد أن أفعل الآن وأنا أتكئ بين مخدتين، تحتي ملاءة بنفسجية، وفوقي لحافي القديم.أن أجلس على الأرض، على النجيلة وأعشاب مجهولة الاسم، لا تميزها سوى خضرتها، أستند على الأرض الخصبة التي تتخلق الحياة في باطنها، وتتفجر لونا أخضر وأوراقا صغيرة مستطيلة وبيضاوية، رقيقة، غضة، بسيقان وردية، يشتد عودها اللدن فتصير بنية، والنمل يتسابق ويحفر أنفاقه، تتداخل الخضرة الحية مع الأعشاب الجافة الميتة، تتمايل زهرة الأقحوان بألوانها المبهجة وأصفرها الذهبي، أستنشق عبيرها، فيغمرني دفء، وتتولد في داخلي وداعة وينفتح العالم أمامي وتسقط كل الحوائط بيني وبين الآخرين.

يمكنني الآن أن أعتذر لراوية، أستمع لكل لومها، لن أدافع عن نفسي، تحتاج هي لحضني الآن، لن تكون هناك فضيحة، فقط صفحة جديدة نفتحها.

يتماوج النسيم فوق الأرض الخضراء المنبسطة أمامي، تتمايل أطراف النباتات تعطي زخما وغنى وملمسا قطيفيا تتحسسه عيني وتتابع تموجات الأخضر المتناهية، الياقوتة الخضراء التي نظر الله إليها بعين الهيبة فذابت وصارت ماء، ثم خلق العرش وجعله على متن الماء، منتهى الأشياء وحدودها القصوى.

والبنت التي تهز شجرة التوت فلا تقدر عليها، ولا تطول أقرب فرع منها، يأتي أحدهم يهز لها الشجرة، يسقط التوت، تجمع ما يسقط على الأرض وتجرى به لأمها المريضة التي تنام على السرير الوحيد في البيت، تتوقع أن تفرح أمها، تشتكي من ألم في رأسها، تناولها إيشارب لونه أزرق وبه ورود كبيرة حمراء، تعصب رأسها:

– عطشانة.

أحضر القلة، أهز يدها، لكنها مضت بعيدا.

لماذا لا أذهب وأرش قبرها بالماء.. تسقط دمعة من عيني تتمدد جدولا، بحرا أزرق اللون رصينا، هادئا، واثقا.أخطو على شاطئه تتوقف موجاته عند قدمي فأكتسب غرورا وثقة ،عند قدمي يقف العالم.أبحر مع "فؤاد" على مركب من رأس البر حتى أسوان، يمكن للرحلة أن تمتد ونطوف العالم، لكننا عدنا، كنا سنعود لأي سبب.

فتستقبلني هدهدات حمامات بيضاء تطير وتحط على نافذتي، ينساب أمان في الروح، يجعلني أسهر في شرفتي ليال طويلة، أجلس في انتظار أن أراها بعد صلاة العشاء وحتى السحور وصلاة الفجر. عين على السماء وعين على النهر. تقول "رحيل" إنها رأتها في السماء أولا وبخط واضح من النور الأبيض "لا اله إلا الله محمد رسول الله" وظلت العبارة تسير بجوار النجوم ثم سقطت كشهاب نحو صفحة الماء، ليلة القدر للموعودين.

يملؤني حنين دائم إلى اللحظة التي لمست فيها أصابعك وجهي وأنا أعمل في ستارة من الدانتيلا، كان الهدف أن تكون لأمك لكنها لم تكتمل أبدا لها

– مش هغير في الأثاث، الموضه هي الستاير المنقوشه.

وعندما اكتملت كنت بعيدة ودون نوافذ تعلق عليها ستائر للفرح، أرأيت لا يوجد أبيض خالص، اللحظات المختلسة من الأسى والمرارة والملل، حبات ندى أجمعها في الصباح عن زهرات البرسيم من أجل قريب التهبت عيناه.

مازالت على ورقة "الفيكس" نقطة بنية لامعة، نقطة الشيكولاته التي سقطت من حبيبة على الورقة الخضراء البضة، مازالت موجودة، خطا لامعا بنيا لزجا يعترض مسارات الخطوط المتوازية، يتقاطع معها.

هل هي شيكولاتة تغذي الورقة أم هي مرض ظهر على سطحها؟

ياللحفيدة التي تسافر وترسل لي بصور لمراحل تطور جنينها دون أن تتزوج .

ما الذي تحتويه شقة "الزمالك"؟ ما الذي جعل أمك تعود، بعد دراسة علم النفس، سيدة أعمال ومديرة لمدارس؟ ما الذي جعل خالك منير يرحل، ويسافر خالك عاطف، وأنت و"حياة" .. اللعنة. هل كان عليّ أن أتخلص منها؟

الجو شديد البرودة هل أغلق نافذتي؟ لا يمكن فماذا عن الموت القادم هناك من بعيد؟

رأيته يدور حول البيت، مضى عهد لم أره، تغير شكله، بدت عليه خطوط الأيام، ما الذي فقده؟ لمعة العينين؟ أسنانه؟ هل يركب طاقم أسنان، ربما روح المرح. استقبلته، بعد أسبوع مات أبي، كنت أعرف أنه قادم، قادم، فحاولت أن أفادي، وأخفف الواقعة، مات أبي في الوقت المناسب، الوقت الذي جعل نعيه في جريدة الأهرام يليق بالحاج حسين الفقي، والد الأستاذ الدكتور يحيى الفقي أستاذ جراحة التجميل، والسيدة حسنة الفقي وصهر فؤاد بك الكاتب وجد...،..،...، وقريب ونسيب عائلات..

كنت تنتظرين موته.

كتبت هذا الإعلان أكثر من مرة.

فقط كنت مستعدة....

تحاولين رد الاعتبار لأبيك؟

هل كنت أطمع لأبي في ميتة أفضل من هذه؟

وتصبحين أنت في وسط الدائرة.

لا. كان على" فؤاد" أن يموت، كي أصبح في المركز تماما.

غسّلتيه بيديك؟!

امتنانا لما فعل بموته لا ما فعل بحياته.

والنسوة في انتظار خروجه، كان حزني حقيقيا، لكننا عندما عدنا من المقابر كان الهواء مختلفا، نقصت من أجزائه عبارة: "إنت عبيطة".

الشاهد على سذاجتك مضى، أديت دورك بإتقان كل المخلصات، وبمرور الوقت ستتغير هذه الجدران، الجدران التي سمعت الكلمة، المفروشات التي سقطت عليها، وتصبح السرايا سرايتك، والبيت بيتك، لم يحزنك الموت قدر ما أدهشتك قراراتك العميقة التي لم تصلي أنت إلى قرارها. أي منكما لم يعرف الآخر؟ رغم أنك لا تعرفين لعبة الشطرنج. مسكين فؤاد.

حبيبة! بأي لون يمكن أن تلوني حياتي؟!

الألوان التي تعطيني إياها ألوان قديمة، واثقة، نقية، فيها سكون ورضا، ورغبة في الكمال. أريد ألوانا حقيقية، أريد ألوانك. سأنتظرك.

❖

# الفصل الثاني عشر

حُسنة معها بعض الحق، فقد تغير طعم السمك.

وراوية معها بعضه الآخر، فقد تغيرت حُسنة...

لم تعد  ترضى أن تستضيفني في بيتها، أو أن أجلس معها في صالونها المذهب، وعندما يأتي ذكري أمامها تقول وهي تضم ابنها البكر:

– بعد الشر.

هل صرت شرا وغريبا تطردني من حجرتها؟

لم أدرك عمق رغبتها في عدم رؤيتي إلا عندما رأيت دموعها، ورأيتني في بؤبؤها المتلألئ بالدمع طائرا أسود وجناحيه ظلام.

تهمس ودموعها معلقة على رموشها الطويلة:

– بعد جوازي ما أقدرش أستضيف غريب.

لا تدرك أن الأسوار لا تُبعد الموت، لكنها تجعل زيارتي لها محدودة ومحددة، الأسوار تُنَظِّم دخول الأشياء وخروجها، لكنها لا تمنع شيئا. لو أنها تأملت قليلا لرأت أن أحدا لا يمكنه أن يهرب مني.

سأخرج من بيتها غاضبا، لكني سأجثو على ركبتي أمام دموعها، وأنا أبرئ ساحتي من غياب ابنها "منير"، ولم يكن ذلك هو الوقت المناسب كي أذكرها بنظرتها القديمة للموت: الإنسان في هذه الحياة له مهمة معينة، وبعد أن يؤديها، على المحيطين به أن يتركوه يذهب إلى هناك، إلى الضفة الأخرى، ويرعى شئونه بعيدا عما يجب واللازم والمفروض، وعن أثقال الرموش المشرعة له دوما.

بالقطع لا يمكن لأم ثكلى أن تتذكر هذا الكلام.

خاصة وأنها تغيرت كثيرا ..فلم تعد تمشي معي كما كنا، اكتفت بمشاهدة التلفزيون. عندما بدأ إرسال التلفزيون كا ن "فؤاد الكاتب " من أوائل الأثرياء الذين اقتنوا هذا الجهاز، ولو كانت "حُسنة" كما كانت لامتلأ الدور الأرضي بأولاد يتراصون في صفوف منتظمة ، الأقصر فالأطول ، وفي يد كل واحد منهم قرطاس لب مستقيم، أو قرطاس فول سوداني منبعج في بعض جوانبه بما يتناسب مع حجم حبة الفول. وتأمرهم "حُسنة"

- كل واحد بمحاذاة الصف.

لكما كانت تفعل في "كُتَّاب" سيدنا الشيخ ، والذي كان يمتدح مهارتها في ضبط "الكُتَّاب "، ولما يجعلها ترأس البنات فقط بل و الصبيان ، مما يسبب لها مضايقات منهم بعد انتهاء الدرس، وبنفس المهارة كانت تصدهم ، وإن استدعى الأمر في بعض الأحيان الشكوى لآبائهم.

كان ذكاؤها يوجهها لشكوى الولد الذي يضايقها إلى أبيه وليس لأمه ، فالأمهات كن يجدن أنه من العادي أن يضرب ابنها أية بنت، فهذه علامة رجولة مبكرة ، وتكتفي بتطييب خاطرها والوعد بكسر رقبته ، عندما تراه ، يا حبيبتي أنت الغالية بنت الغالية، أو تمد يدها بنصف رغيف "رحالي" وفوقه قطعة جبن قريش.

هذا الكلام لم يكن ليرضي "حُسنة"، فتقف قرب انتهاء صلاة العصر أو المغرب في الشارع المؤدي إلى المسجد وتوقف الأب

- يرضيك يا عم حسن إن ابنك يضربني بعد الكُتَّاب؟

يفاجأ الأب بشجاعتها، يأخذها من يدها إلى بيته، ولا يهدأ حتى يرن ابنه العلقة المحترمة، يا كلب لا تقدر إلا على البنت الغلبانة، عامل نفسك راجل ؟ بس أنت بطل

تعملها على نفسك ، وتهد حيل أمك ، وكل يوم تنشر المرتبة في الشمس.

فمن يمكنه أن يحب بنت كانت رئيسة عليه؟ وهي كيف لها أن تحب ولدا كان أبوه يناديه أمامها:

– يا أبو شخه.

كانت هذه أيام ومضت، وفيما بعد، فإن أحدا من البلد لم يعرف أن الصندوق الذي دخل البيت الكبير وعليه علامة شركة "فيليبس" هو جهاز تلفزيون ، لكن الخبر تسرب من ألسنة البنات اللاتي كن يساعدن في تنظيف السرايا، ويلمحن الست حسنة وهي جالسة تبحلق في الصندوق الذي يقبل فيه الأزواج زوجاتهم ، وفي يدها طبق بسيمة ، وبجانب كرسيها تجلس "فاطمة " التي تؤثرها بمعاملة خاصة، ويمكن لها أن تتساهل مع باقي الشغالين، وتسمح لهم بمتابعة المسلسل اليومي وهم واقفين أمام الطرقة المؤدية إلى المطبخ ، دون أن تعكر مزاجهم بطلب فنجان قهوة مضبوطة.

وأحيانا تتساهل أكثر فتغض بصرها عن تصنتهم على جلساتها الأسبوعية مع بنات الأعيان وزوجاتهم..في معظم الجلسات، تطلعهن سنية هانم الألفي على

صورها، وهي في كلية البنات الثانوية، وبطقوس احتفالية خاصة تعرض عليهن صورة التخرج:

- دي مس آنجيل، وده مسيو ميشيل، أنا، ودي الزعيمة، تصورت معانا علشان بنات خالها حواء وحورية إدريس

ظلت حُسنة لفترة طويلة لا تعرف من هي الزعيمة حتى قرأت في مجلة حواء مقالا عن تحرير المرأة المصرية، ورأت صورة السيدة التي تحيط وجهها بطرحة سوداء، وعرفت أنها هدى هانم شعراوي.

وفي يوم آخر أحضرت زوجة المأمور جريدة بها مقال، عنوانه: المفكر الفلسطيني الكبير ادوارد سعيد يكتب ذكرياته عن تحية كاريوكا ، وفي وسط المقال صورة للراقصة الأشهر بطرحتها البيضاء وجسدها المحملي الذي فقد رشاقته، لكن ليونته تراوغ الملابس الفضفاضة وتشي بما كان.

تتنهد منيرة هانم وهي تنظر إلي الصورة وتقول:

- كان جارنا في الزمالك، كان خجول جدا زي البنات، ويحمر وجهه لو حد غريب كلمه، ولا يخرجشي إلا مع إخواته الكبار، فجأة هاجر لأمريكا مع أهله.

ولم تصمت حُسنة طويلا:

- في يوم النحاس باشا زعيم الأمة كان في زيارة للمنصورة، وكان هيتغدى عند محمد ب يه الشناوي ، والمنصورة كلها بقت فرحانة، فراشة، وأنوار وميكرفونات وأعلام، الحكمدار كان ضد الوفد، ف أصدر أوامره لرجال البوليس بإزالة كل مظاهر الاحتفا ل والعساكر انتشروا يهدموا الزينات، وفتح وا جميع الكباري لمنع الناس من الترحيب بالباشا، لكن والدي الحاج حسين صمم على رؤيته، العسكر كانوا شايلين بناد ق فيها سكاكين ، ولما ظهر الموكب ووالدي فيه، حاول عسكري قتل ا لنحاس باشا لكن الطعنة جت في سينوت حنا بيه، والدي شاف اللي حصل، جري ورا العسكري ومسكه، لكن العسكري طعنه في رقبته.

- وبعدين؟

- النحاس باشا عجبته شجاعة والدي وقال له: يا حج حسين إنت من الوطنيين.

- واتصور معاه؟

- طبعا اتصور، لكن الصورة مابتفارقش محفظته، وإن كان على الصور مفيش أكتر منها.

وكأنها كانت تنتظر هذا السؤال، ومستعدة له بحكاية جديدة، ففتحت مجلة "المصور" وأشارت:

- السفينة سعد كانت ملك لجدي وفي يوم اصطدمت مع السفينة الباسل عند رأس البر وغرق جدي ومعاه كل تجارة العيلة من الحرير.

تماهت حُسنة مع الجلسات الأسبوعية، وشيئا فشيء أصبحت أهم أركان هذه الجلسة، وموطن استشارة السيدات المتباهيات بجدودهن، وأراضيهن الشاسعة، بل وبمرور الوقت أصبح لها جلستها الأسبوعية الخاصة في سرايتها، التي لم تمتنع عن إقامتها إلا شهري فبراير ومارس بعد وفاة أم كلثوم.

وكل هذا لا يعني إلا أن حسنة تغيرت كثيرا كثيرا

عند منتصف الليل، تشعر بوقع أقدام رهيفة خفيفة ، وبحركة في غرفة المكتب التي كان "فؤاد" يقضي فيها معظم وقته، وفي أحيان أخر ى تلتقط أذناها موسيقى ناعمة وحركات راقصة. بل ولاحظت عندما تنهض لصلاة الفجر، أن ورود وأزهار الستائر المنقوشة تختفي، ويبقى لونها السادة بدون نقوش ، لكنها وللمفاجأة تج دها مكومة تحت صورة "فؤاد" في غرفة المكتب . فأصبح عليها أن تجمع هذه الزهور الهاربة، وتعيدها إلى مكانها، إلى قماش الستائر. وبالقطع لم تكن تعيدها بنفس الدقة القديمة، الاختلافات الطفيفة بين توزيعات زهور القرنفل والجهنمية والور ود، ووضعية كل زهرة على الستائر

غيرت كثيرا من شكل الستائر الأصلي. بما جعلها عرضة للقيل والقال، وللمز في مد ى حزنها على زوجها الراحل الذي لم يمر أربع ون يوما على وفاته ، وإذا بها تفاج ئ الجميع بصفو بالها، وتغيير الستائر وتعلي ق أخرى بألوان وأزهار زاهية.

لاحظت "فاطمة" وهي تقدم القهوة السادة للمعزيات هذه اللمزات، ولكن شدة حزنها على سيدها لم يجعلها تطرح على نفسها سؤال ا بديه يا: مت ى خرجت س يدتها لشراء الستائر؟ مت ى تم تعليقها؟ وتركيبها؟ ولم تلاحظ أن البي اضات مازالت تغطي أطقم الصالون وال أنتريه في الصالة الكبيرة . وعندما حكت ما تسمع من لوم المعزيات لزوجها، كانت هذه هي الفرصة التي انتظرها "مسعود " الجناييني ليحلق ذقنه ، ويستحم ، ويسبسب شعره بالفازلين، يعطر نفسه بكولونيا "خمس خمسات " التي اشتراها من "شربين" بعشرة قروش. وكلها مقدمات تحفظها فاطمة ، وأثناءها تستعد نفسيا لكنها لا تبدي فهما إلا بعد أن يبتسم وهو يفرك يديه ويقول لها كلمة السر:

- ليليتنا فل إن شاء الله.

فتبتعد يده عن كتفها بدلال، بينما تخلع جلبابها الأسود وهي تقول:

– يا راجل ما يصحش، البيه مكملش أربعين يوم.

وبينما هما يتناوشان في البدروم، كانت حسنة تعيش في عالمها الجديد.. تهيم في الحدائق والمزارع، تجذبها رائحة الشيح البلدي.

تردد: البابونج يطرد الحيات والأرواح الشريرة.

تحذر: لا تتركوا المنخل فارغا.

وبحسرة تتذكر: هذا البيت لا يسلف ولا يستلف.

وعلي طريقتها الخاصة التي لا ترضي "راوية" أو غيرها، تحج كل عام.. قبل خمسة أيام من نهاية شهر ذي القعدة، تجهز عدتها، تدخل المكتبة وبمساعدة "نور" تفرز الكتب التي تحتاجها:

سنة لابن كثير..
سنة لرياض الصالحين..
سنة للجغرافيا..
سنة للتاريخ..

وهذه السنة وقبل موعد الموسم، دخلت غرفة حبيبة، وجمعت كل المجلدات التي تضم رسوما لكبار الفنانين التشكيليين وعندما قالت لها نور

- يا عمتي الكتب دي بالإنجليزية وإنت ..

نظرت لها بضيق: هشوف اللوحات اللي رسموها، أحس ألوانها، أفهمها.

هاتفت أخاها يحيي

– عايزاك تشتري لي كل الكتب اللي تتكلم عن الرسامين وتكون باللغة العربية. متتأخرش. آه متنساش فيلم زوربا اليوناني.

وفي موعدها تودع أهل البيت، وترتدي ثوبها الأبيض ، وخاتمها ذا الفص العقيق وهي تردد قول الرسول "من تختم بالعقيق لم يزل في بركة".

تنسق شرائط الشيخ "عبد الصمد"، و"الحصري"، و" النقشبندي"، تملأ ثلاجتها بالفاكهة، وتطلب من فاطمة تشغيل المروحة

- يا ست التكييف شغال.

- لما أشوف ريش المروحة بيتحرك يبرد الجو ، أما التكييف ده إزاي أثق فيه؟

تغلق الباب على نفسها وتبدأ مناسكها.

وبعد صلاة العيد، تخرج وتوزع أنصبة الأضاحي، وفي المساء تحضر زفاف البنات اللاتي تكفلت هذا العام بتجهيزهن، وقبل أن تبدأ الراقصات في تقديم فقراتهن

تتسلل إلى حجرتهن تمعن النظر في وجوهن، تسألها واحدة:

– بتشبهي؟

– اسمك إيه؟

– سهام.

– وإنت؟

– أميره.

– يا خساره..

– تحبي يبقى اسمي إيه؟

– مش فاكره..

وتخرج تشيعها ضحكات ترطب قلبها، وتستدعي في روحها رائحة كيزان الذرة المشوي، وصورة بنتين إحداهما شعرها قصير، والأخرى يملأ وجهها نمش، تتلصصان من قماش الخيمة على الراقصة.

وبعد كل حجة كانت هناك عبارات جديدة تلتصق بلسانها.

بعد حجتها الأخيرة أمكنها أن تصيغ هذه العبارة:

– أحلامي مثل أحلام  سيلفادور دالي..

أو تخرج بالمظلة في الشمس الحارقة، والسماء الزرقاء تتوزع بها قليل من السحب البيضاء حافية القدمين. ثم تعود لتقول:

– كان على مونيه أن يراني قبل أن يرسم السيدة والمظلة، فظلي على شجيرات اللانتانا كمارا سيكون أوضح.

وتسأل بصوت عال هل وصلت حبيبة؟

تغيرت حُسنة كثيرا كثيرا كثيرا.

لكنها ليست وحدها التي تغيرت: الزمن نفسه تغير ومضت الأيام التي كنت فيها إلها مهيبا، يمكن لي أن أصيح في وجه كبير الآلهة مهددا:

"... الآن وقد قتلت لوتان

الآن وقد سحقت رأس التنين

الآن وقد قضيت على الحية الملتوية

الحية الملعونة ذات الرؤوس السبعة

الآن وقد اكتنفتك السماء بهالة من المجد

تذكر أيها الظافر البعل أني إله الموت

أبقيت عليك لم أدخلك شدقي

لم أبتلعك كجدي

لم أنزلك إلى حفرتي..."

هذا زمن مضى. ما أنا الآن إلا موظف يؤدي مهمته.

من كان يظن أن شجرة المعرفة وثمرتها المحرمة التي اختارها الإنسان، وأخرجته مؤقتا من النعيم إلى الموت والفناء ستؤدي به إلي الخلود، و لو كان خلودا مؤقتا يجدد خلاياه، يبطئ عقارب زمنه، يزيد في عمره.

وحده الإنسان القادر على استخدام أسرار العلوم التي علمتها له الآلهة في منازعتها الخلد، وكشف السر والوصول إلى المنبع حيث تجلس الحية حامية للسر الأبدي في جلدها المتجدد كل عام، تنسلخ عنها أيامها لتعيد دورة حياتها، الدورة والدائرة الشكل الأكثر انسيابية وحركة وإحداثا للحيرة، الدائرة رباط القيد الكامل ، تنقلب كلها وتنغلق على نفسها، ولا أول لها ولا آخر ولا مقدمة لها ولا مؤخرة، تتحرك في آن واحد في هذا الاتجاه وفي الاتجاه المضاد.

الدائرة وحدها تستطيع قلب الخطيئة إلى نعيم إلى ثواب النعيم لمن تمرد، لمن اختار وتحمل تبعة الاختيار.

ألم أقل لكم في البداية إن الإنسان يحيرني كثيرا، ويتضح لي في النهاية أن الرب يكافئ البشر على تجاربهم

وخطاياهم، وأن حل لغز الحياة في عيشها ونسيان الموت؟!

علي حُسنة ألا تستعجل ابنتها وأن تطمئن لزيارتي، فموتي يقترب مني، وستنهي فنجانا آخر من الشاي، قبل أن يُسمح لي بلمس فنجان الشاي الذي تعده راوية، حفيدتها لم تظهر بعد لكن خطواتها على الطريق قريبة.. وموتي يقترب مني.. يقترب.. كيف يمكن لي أن أعتذر لها؟ وهي لا تدري سر اضطرابي، تحاول أن تبدي تفهمها لمهمتي التي تعتقد أني أتيت من أجلها.

- عارفه ده عملك، كل ميسر لما خلق له.

لكني لم أخلق لموتها، موت آخر أكثر شبابا سيتولى مسألتها، فأنا أنسحب، أنمحي.. ربما يمكن لموت آخر أن يستطيع التعامل معها، وهي يمكنها أن تستمر في تغيرها وتتآلف مع موت آخر، بل وتضمه إلى صفها حتى أنه حين يأتي موعده سيخجل من جلسته أمامها مترددا، حائرا، يروي لها عنها وعن الذين أحبت، يحكي ويحكي ومن بعيد يرى موته يقترب منه، يقترب.. يقترب.. يقت.. أنا أزول.. أزو.. لكن ذلك لن يمنعني "كجنتلموت" أن أمد يدي وأرقص Slow مع السيدة التي عرفتها عمرا طويلا.. بينما حفيدتها تنزل من سيارتها وعلى ذراعها مولودة جديدة، وبالذراع الأخرى تدفع بوابة السرايا الكبيرة.